ترجمات

فلاديمير
نابوكوف

رواية
العين

ترجمة: ياسر شعبان

89

ميريت



العين

ترجمات

إشراف: ياسر شعبان

العين

الطبعة الأولى، ٢٠٠٢

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٥١٥٠٠ (٢٠٢)

merit56 @ hotmail. com

المدير العام: **محمد هاشم**

الغلاف: **أحمد اللباد**

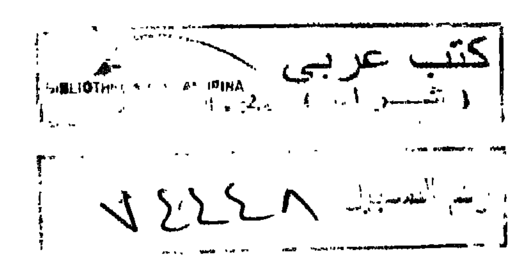
رقم الإيداع: ٢٠٠٢/٣٢١٣

الترقيم الدولى: **977-351-027-1**

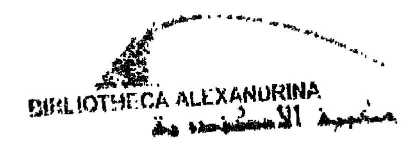
فلاديمير نابوكوف

العين

رواية



ميريت للنشر والمعلومات





إلى "فيرا"



مقدمة المؤلف

العنــوان الروســى لهـذه الروايــة الصغـيرة هــو (SOGLYDARTAY) بترجمــة تقليديــة، وينطـق صوتيــاً كـــ sugLy - dart - eye، مع علامة نبر على المقطع قبل الأخير.

وهو مصطلــح عسـكرى قديم يعنــى "جاسـوس" أو "مراقب" لكن أى من الكلمتين لا يعبر بمرونة مثل الكلمـة الروسية. وبعد اللهو فى روايتى "الجاسوس" و"المصــارع"، توقفت عن محاولة مزج الصوت والإحساس، وكثفـت مـن نفسى لتتناسب مع "العين" فى نهاية مطاردة طويلة.

وتحت هذا العنوان نسجت الرواية طريقها المبهـج من خلال ثلاث حلقات تم نشـرها فـى مجلـة "بـلاى بـوى" أثناء الشهور الأولى من عام ١٩٦٥.

وكنت قد كتبت النــص الرئيســى فــى عــام ١٩٣٠، فى برلين، عندما استأجرت وزوجتى حجرتيــن مـن عائلـة ألمانية فى شارع هادئ. وفى نهاية العام ظهر هذا النـص فــى مجلــة "émigré review" ، فــى بــاريس ، والمعنيــة بنشــر

الأدب الروسى. والشخصيات الموجودة فى هذا الكتاب هى الشخصيات المفضلة لى خلال مرحلة شبابى الأدبية. شخصيات المغتربين الروس فى برلين، باريس ، أو لندن".

وحقيقة، بالطبع، قد يكونون كذلك نروجيين فى نابلس أو "أمبراشيانس" فى "أمبريدج" : فدائماً كُنت غير مهتم بالمشكلات الاجتماعية، واستخدم فقط المادة التى يتصادف وجودها بالقرب منى، مثل الأقلام الرصاص الموجودة على مائدة العشاء، زاوية شارع، وأكتب على مفرش المائدة أو أرتب كسرة خبز وزيتونتين فى وضع قطرى بين قائمة الطعام وعلبة الملح.

وثمة نتيجة مدهشة لحالة عدم التحيز لحياة المجتمع وكذلك لأشكال التطفل التاريخى، وهى أن الجماعة المجتمعية تنزلق كلها إلى بؤرة فنية تتطلب الحفاظ على مظهر من قبل الكاتب المهاجر وقارئه المهاجر.

ومنذ فترة طويلة تم استبدال كل من (إيفان إيفانوفيتش) و(ليف أوزيبوفيتش) فى (١٩٣٠) ، بقرّاء غير روسيين يشعرون بالحيرة والإثارة اليوم عندما يضطرون إلى تخيل مجتمع لا يعرفون شيئاً عنه، ولهذا لا مانع لدى فى أن أكرر مرات أن أكواماً من الورق تم انتزاعها من الماضى وتدميرها بواسطة مدمرى الحرية، فلقد قامت الدعاية الروسية، منذ نصف قرن تقريباً ،

بتضليل الوعى الأجنبى ليتجاهل أو ينكر أهمية الهجرة الروسية (والتى لا زالت تنتظر من يقوم بالتأريخ لها).

تدور أحداث القصة فى الفترة بين (١٩٢٤ – ١٩٢٥) . بعد انتهاء الحرب الأهلية الروسية بأربع سنوات، وكان (لينين) قد توفى منذ فترة جد قصيرة ، لكن طغيانه استمر فى الانتعاش. عشرة ماركات ألمانية لا تتعادل تماما خمسة دولارات. وفى هذه الرواية تتفاوت شخصيات الروس المنفيين من الفقراء المتشردين إلى رجال الأعمال. ومن بين رجال الأعمال فى الرواية (كاشمارين "زوج ماتيلدا" الذى فر من روسيا عبر المنفذ الشمالى لكوستانتينبول). وكذلك والد "إيفجنيا" و"قانيا" وهو جنتلمان عجوز يدير فرع شركة ألمانية فى لندن، وله رفيقة لعوب).

وينطبق على "كشمارين" ما يطلق عليه الإنجليز : (الطبقة المتوسطة)، لكن السيدتين الصغيرتين اللتين تعيشان فى (٥ شارع بيكوك) فمن الواضح أنهما تنتميان إلى طبقة النبلاء الروسية ، ثبت ذلك أو لم يثبت ، لكن ذلك لم يمنعها من أن تكون لهما ذائقة قراءة تقليدية محافظة . وكان زوج "إيفجنيا" ذو الوجه الممتلئ ، والذى لاسمه اليوم وقع كوميدى، يعمل فى بنك برلين.

أما الكولونيل (موخين) ، المزهو بنفسه والمتزمت البغيض، فلقد حارب فى العام (١٩١٩) تحت قيادة (دنيكين) ، وفى العام (١٩٢٠) تحت قيادة (رانجيل)، وهو

يتحدث بأربع لغات، وله مظهر يعطى انطباعاً بأنه خبير بالناس ويترك أثراً بارداً على النفس ومن المحتمل أن يؤدى بشكل جيد فى الوظيفة المريحة التى يوجهه إليها أبوه بالمعمودية.

أما الصالح "رومان بوجدانوفيتش" ينتمى إلى ثقافة منطقة بحر البلطيق ذات الصبغة الألمانية أكثر من انتمائه إلى الثقافة الروسية.

وتعتبر شخصيات مثل: اليهودى غريب الأطوار (فينشتوك)، والطبيبة المنتمية لدعاة السلام (ماريانا نيكوليفنا)، والراوى الذى لا ينتمى إلى طبقة بعينها، تعتبر هذه الشخصيات ممثلة للمثقفين الروس.

ومثل هذه الإشارات ستجعل الأمور أسهل قليلاً على نوع القارئ (مثلى أنا) الذى يشعر بالحذر تجاه الروايات التى تتعامل مع الشخصيات الطيفية بما يحيط بها من أشياء غير مألوفة، ويشبه ذلك الترجمات عن اللغة المجرية أو الصينية.

وكما هو معروف (أستخدم عبارة روسية مشهورة) ، مثلما تتميز كتبى بغياب الأهمية الاجتماعية، فإنها تتميز كذلك بالبعد الأسطورى الذى يغرى الفرويين بالدوران حول هذه الكتب ، والاقتراب منها بمجسات متلهفة ، ويتوقفون، يتشممون ثم يتراجعون.

من ناحية أخرى فإن سيكولوجى جاد قد يميز خلال بللوراتى البراقة؛ عالماً من تحلل الروح حيث يتحقق

وجود (سمروف) المسكين فقط عند انعكاسه فى عقول الأخرين، وهؤلاء بدورهم مرتبطون بنفس الوعد المرآوى الغريب، مثله تماماً.

وتحاكى الرواية الأدب البوليسى، لكن حقيقة - يعلن المؤلف عن عزمه على خداع وإثارة حيرة والقارئ بدلاً عن خداعه.

فى الحقيقة ، فقط القارئ الذى سيدرك ذلك من أول وهلة سيحصل على حالة إشباع فريدة من رواية العين.

ورغم ذلك، فإنه حتى بالنسبة للقارئ الأكثر توحداً وتصديقاً لهذه الحكاية سيحتاج إلى وقت طويل كى يدرك من يكون (سمروف).

وجربت ذلك على عدد من القراء: سيدة إنجليزية عجوز، طالبين، مدرب هوكى الجليد، طبيب ، طفل فى الثانية عشر وهو ابن لأحد الجيران.

وكان الطفل هو الأسرع ، والجار هو الأبطأ فى إدراك ذلك. إن موضوع رواية (العين) هو عملية التحرى الا سرة التى تقود البطل عبر جحيم من المرايا، وتنتهى بظهور صورتين توأمتين.

ولا أعرف إذا كان القارئ الحديث سيشاركنى البهجة الرائعة التى حصلت عليه، منذ خمس وثلاثين سنة، من تحديد مثال أسطورى بعينه تتطلبه الحالات المختلفة للراوى، لكن على أية حال ليس التركيز على الأسطورة

بل على المثال.

واعتقد أن تتبع آثار (سمروف) لهو رياضة بديعة، بغض النظر عن مرور الوقت وتجاوز الكتب، والانتقال من سراب لغة إلى واحة لغة أخرى. ولن يتم اختزال حبكة الرواية فى عقل القارئ - إذا كنت أقرأ ذلك العقل بشكل صحيح - إلى مجرد قصة حب مؤلمة، والتى لا يتعرض فيها قلب المتألم إلى الازدراء فقط، بل إلى الإهانة والعقاب.

وهكذا فإنه على المدى الطويل، فإن قوى الخيال، وهى قوى الخير، ستكون إلى جانب 'سمروف' وسيثبت كذلك أن المرارة الشديدة للحب المعذب، أنها مسكرة ومنعشة مثلما يكون الانتقام النشوات.

فلاديمير نابوكوف
مونتريو
١٨ أبريل ١٩٦٥

(ماتيلدا).. قابلت هذه المرأة خلال أول خريف لي كلاجئ في برلين، منذ عقدين من الزمن، وفي بداية العشرينات من هذا القرن ومن حياتي المغفلة.

كان شخص ما قد تحصل لي على وظيفة مدرس خصوصي لدى إحدى العائلات الروسية التي لم يكن قد طالها الفقر - بعد، وما زالت تعيش على أشباح العادات السابقة في (سان بطرسبرج).

لم تكن لدي خبرة مسبقة بتربية الأطفال، ولا حتى أدنى فكرة عن الوسيلة التي أستطيع بها الانسجام معهم، ولا عن الأشياء التي يجب أن أحدثهم عنها.

وكان في الأسرة صبيان، شعرت في وجودهما بالقهر والذل.

كانا يعدان السجائر التي أدخنها، ومثل هذا الفضول اللطيف جعلني أدخن سيجارتي بزاوية غريبة وغير بارعة، كما لو كنت أدخن للمرة الأولى، وكان الرماد يتساقط دائماً على صدري، حينئذ كان تحديقهما الواضح يتحرك بيقظة من يدي إلى الغبار الرمادي الباهت الذي يعلق تدريجياً بالملابس الصوفية التي أرتديها.

و"ماتيلدا" ، صديقة أبويهما، كانت تزورهم كثيراً وتبقى لتناول العشاء.

ذات مساء، حينما كانت تستعد للرحيل، سقطت الأمطار بغزارة في الخارج، وأعاراها مظلة، فقالت: كم هذا لطيف منكما، أشكركما بشدة، سيصحبني هذا الشاب

إلى البيت ويعود بها إليكما. منذ هذا اليوم،أصبح من مهامى أن أصحبها إلى البيت.

وأظن أنها بدت لى جذابة ، هذه السيدة ممتلئة الجسد، المتحررة، بعينيها الشبيهتين بعينى بقرة، وفمها الواسع الذى تحيط به تجعيدات قرمزية مثل برعم زهرى، عندما تنظر فى مرآة حقيبتها لتضع البودرة على وجهها. كانت لها ساقان أسطوانيتان ومشية رشيقة توحى بأشياء كثيرة.

كانت تنشر دفئاً غامراً بمجرد ظهورها، لدرجة أننى كنت أشعر كما لو أن حرارة الغرفة قد ارتفعت.

وبعد توديع هذا الأتون الحى الضخم عند رؤية بيتها، كنت أعود وحيداً وسط الأصوات السائلة والبريق الزئبقى لليل عديم الشفقة، كنت أشعر بالبرودة، برودة تجعلنى أشعر بالغثيان.

بعد فترة – وصل زوجها من (باريس) وصاحبها لتناول العشاء. كان زوجاً مثل غيره من الأزواج ، ولم أنتبه له كثيراً إلا بالقدر الذى يسمح لى بملاحظة عادته التى تسبق بداية الكلام "بتسليك" حلقه عن طريق "نحنحة" سريعة وقبضته أمام فمه.

وكذلك ملاحظة عصاته السوداء ذات المقبض اللامع التى يخبط بها الأرضية، بينما (ماتيلدا) تحول عبارات الوداع بينها ومضيفتها إلى مناجاة مبهمة للنفس.

بعد شهر رحل زوجها، وفى أول ليلة - بعد رحيله - أرى بيتها ، دعتنى (ماتيلدا) للصعود معها لآخذ كتاباً، أغرتنى طويلاً كى أقرأه، يحمل عنواناً فرنسياً (أريان - Ariane) لـ (جون فيل روسيه). كانت تمطر كالعادة، وثمة هالات مرتعشة تحيط بمصابيح الشارع. وبينما كانت يدى اليمنى تغوص فى الفراء الساخن لبالطو من فراء الخلد ترتديه، حملت بيدى اليسرى مظلة مفتوحة تسقط عليها قطرات المطر طوال الليل وهذه المظلة فيما بعد ، وفى شقة "ماتيلدا" وضعت مفتوحة بالقرب من مدفأة تعمل بالبخار، واستمرت تقطر.. تقطر، مسقطة قطرة كل نصف دقيقة، مما أدى إلى تكوين بركة كبيرة من المياه. أما الكتاب فنسيت أن آخذه.

ولم تكن "ماتيلدا" هى عشيقتى الأولى. فقبلها أحبتنى (خياطة) فى "سان بطرسبرج". وكانت، هى أيضاً، ممتلئة الجسد وداومت على نصحى بأن أقرأ رواية بعينها (ميوروشكا، قصة حياة امرأة..). وعن كلا المرأتين الممتلئتين يصدر، خلال العاصفة الجنسية ، صيحة حادة، وذهول ، ونظرة طفولية مختلسة، وفى بعض الأحيان بدا لى كل شىء مضيعة للجهد، كل شىء مررت به منذ فرارى من روسيا البلشفية بعبورى، خائفاً حتى الموت، الحدود النهائية (حتى ولو كان ذلك بواسطة قطار سريع، وباستخدام تصريح عادى)، كل هذا للانتقال من طوق إلى آخر يكاد يماثله.

وسرعان ما بدأت "ماتيلدا" تثير ضجرى، فلم يكـن لديها سوى موضوع واحد للنقاش حوله، وبالنسبة لى كـان موضوعاً محبطاً، وهو زوجها. هذا الرجل، حسب قولهـا، كان وحشاً نبيـلاً، وفـى إمكانـه أن يقتلهـا إذا اكتشـف أمـر علاقتهما، لقد عبدها هذا الغيور المتوحش.

وذات مرة فى "كونستانتينبول" اجتذب أحد الرجـال الفرنسيين المحبيـن للمغـامرة، وخبطـه عدة مرات علــى الأرض مثل سجادة.

كان عاطفياً جداً لدرجـة تثير خوفك؛ لكنـه كـان. جميلاً فى قسوته وكنت أحاول تغيير الموضوع، لكنه كـان حصـان "ماتيلدا"، الذى تهوى ركوبه والضغط على جانبيـه بفخذيهـا السـمينين القوييـن. وكـان من الصعـب علــى أن أضاهى الصور التــى ابتدعتهـا عـن زوجهـا، بمظهـر هذا الرجل الذى لاحظته بالكاد، وفى نفـس الوقـت وجـدت أنـه أمـر غير سـار بـالمرة أن أحـزر أن الصـورة ليسـت مـن صنـع خيالهـا علـى الإطـلاق، وعنـد هـذه اللحظــة يكـون الشيطان الغيور ليس سوى صـورة لرجـل، أدرك أنـه فـى مأزق، فقام بتمثيل الـدور التافـه الـذى حددتـه لـه زوجتـه: يصر على أسنانه، يقلب عينيـه، ويتنفس تنفسـاً ثقيـلاً مـن خلال أنفه.

وفى الغالب كنـت أمشـى مجهداً إلـى البيـت بعلبـة سجائرى الفارغة، ووجهى الذى يلتهب من نسـمات الفجر الباردة فأشعر كما لو كنت قد أزلت تـواً مكياجـاً مسـرحياً.

ومع كل خطوة تنطلق نبضة ألم يتردد صداها فى رأسي ؛ لأ تأمل مدى ضآلة ما أنا فيه من نعمة وسعادة، متفحصاً نفسى من كل جانب، وياللعجب، أشعر بالشفقة على نفسى، كما أشعر باليأس والخوف.

فلقد كانت محصلة ممارسة الجنس بالنسبة لى ليست سوى هضبة صغيرة جرداء ذات منظر قاس.

ورغم كل ذلك، فلكى تعيش سعيداً؛ يجب أن يخبر الإنسان من حين لآخر لحظات قليلة من غياب المعنى والمتعة . ورغم أننى كنت دائماً عرضة للخطر، ودائما منتبهاً بعينى على اتساعهما، وحتى أثناء النوم لم أتوقف عن متابعة نفسى دون أن أدرك أى شىء عن وجودى. وأكاد أجن من التفكير بأننى لا أستطيع التوقف عن متابعة نفسى ، وأحسد كل هؤلاء الناس البسطاء، والموظفين - الثوار - البائعين ، الذين بكل الثقة والتركيز يستمرون فى أداء وظائفهم الصغيرة. ولم يكن لدى درع من هذا النوع، وهكذا ففى الصباحات باهتة الزرقة والمرعبة، وعندما يتصاعد - واهناً - وقع قدمى فى جو المدينة الموحش، كنت أتخيل شخصاً ما يصاب بالجنون لأنه بدأ يدرك بوضوح حركة الكرة الأرضية. فها هو يترنح محاولاً الحفاظ على توازنه، يتشبث بقطع الأثاث حتى يستقر على مقعد جوار النافذة وعلى شفتيه ابتسامة من يشعر بالإثارة، مثل تلك التى تبدو على شفتى أحد الغرباء فى قطار وهو يلتفت إليك ليسألك: "هل القضبان تحترق، أليس كذلك؟!".

لكن سرعان ما يجعله الترنح والاهتزاز يصاب بالإعياء ليبدأ فى ارتشاف كوب من الليمون أو الماء المثلج، وهو مستلق على الأرض، لكن دون فائدة، الحركة لا يمكن وقفها، فالسائق أعمى، ولا سبيل للعثور على الفرامل، وهكذا سينفجر قلبه عندما تصل السرعة إلى حد لا يمكن تحمله..

.. كم كنت وحيداً..!! فـ "ماتيلدا" التى ستسألنى بحياء هل كتبت الشعر، "ماتيلدا" التى ستحرضنى أن أقبلها - ونحن على السلم أو عند الباب - فقط للحصول على فرصة تؤدى فيها رعشة خجلى وهمسة عاطفية "أنت ولد مجنون..." ، "ماتيلدا" بالطبع لا تهتم، ومن غيرها يهتم ممن أعرفهم فى برلين؟

سكرتير منظمة رعاية المهاجرين ، الأسرة التى أعطتنى وظيفة مدرس خصوصى، السيد "فينشتوك" مالك المكتبة الروسية، المرأة الألمانية العجوز صغيرة الحجم التى استأجرت منها حجرة من قبل، قائمة هزيلة. وهكذا - فكل وجودى المباح ليس سوى دعوة للبؤس. وذات مساء تم قبول هذه الدعوة.

* * *

كانت الساعة تقارب السادسة، والنوافذ تزداد عتامة بسبب الظلمة المتساقطة عليها ، وبالكاد كنت قادراً على تبين السطور فى قصة ساخرة لـ "تشيخوف" تلك القصة التى كنت أقرأها بصوت آثم على المتحكمين فى

أمرى، لكنني لم أجرؤ على إضاءة النور، فلقد كان لهذين الولدين ميلاً غريباً - غير كل الأطفال - إلى الاقتصاد بغريزة بغيضة مثل غريزة ربة المنزل، فهما يعرفان بكل دقة أسعار "السجق، الزبد، الكهرباء، وشتى الإصلاحات المتعلقة بالسيارات" وعندما كنت اقرأ بصوت مرتفع (قصة كامنجة) محاولاً بلا طائل أمتاعهما، وكنت أشعر بالخجل من نفسى ومن المؤلف المسكين ، عرفت أنهما قد أدركا صراعى مع غبش الظلمة، وأنهما ينتظران ببرود ليريا هل سأستمر فى القراءة حتى دخول أول ضوء إلى المنزل من إضاءة الشارع، لأقدم لهما القدوة.

وهذا ما فعلته، وكان الضوء مكافأتى .

وبينما كنت أستعد لإضفاء مزيد من المؤثرات على صوتى (عند الاقتراب من أكثر المقاطع مرحاً فى القصة)، رن جرس التليفون فى الصالة. كنا وحدنا فى الشقة ، فقفز الصبيان فى الحال وتسابقا باتجاه صوت الرنين. بقيت ومعى الكتاب مفتوحاً على حجرى، أبتسم خجلاً للسطر الذى تعرض للمقاطعة.

وتبين أن المكالمة كانت لى . جلست على كرسى من نوع "البامبو" ووضعت السماعة على أذنى. ووقف تلميذاى جوارى ، أحدهما عن يمينى والآخر عن شمالى يراقبانى فى هدوء.

قال صوت ذكورى : كنت على وشك إغلاق الخط، رغم ثقتى من أنك ستكون بالبيت.

أجبته بلطف: لن تتعرض ثقتك للخيانة، لكن من أنت؟

قال الصوت: ألم تتعرف عليّ؟ هذا أفضل بكثير، سوف تفاجأ.

قلت ضاحكاً: لكنى أود أن أعرف من الذى يتكلم، أنا أصر.

(فيما بعد كان الرعب والخجل الشعورين المصاحبين لاستدعاء نبرة المرح فى صوتى) أجاب الصوت بإيجاز: فى الوقت المناسب.

وهنا بدأت أشعر بإثارة المزاح، وسألته: لكن لماذا؟ "يالها من قصة طريفة مسلية لـ..." وأدركت أننى كنت أتحدث إلى فراغ، هززت كتفى بلا مبالاة ووضعت السماعة.

وعدنا إلى غرفة الاستقبال؛ وقلت: والآن - أين توقفنا؟

ووجدت الموضع الذى توقفت عنده وعاودت القراءة. ورغم ذلك، انتابنى شعور غريب بالقلق وعدم الارتياح وخلال قراءتى الآلية ذات الصوت العالى، ظللت أتساءل دهشاً عمن قد يكون هذا الضيف.

هل وافد جديد من روسيا؟

وعبر ذاكرة يلفها عدم الوضوح، تجولت بين الوجوه والأصوات التى عرفتها. يااااه - لا يوجد الكثير منها، وتوقفت لسبب ما عند طالب يدعى (يوشاكوف) .

عدت إلى ذكرى السنة الوحيدة لى بالجامعة فى روسيا، وإلى شعورى بالوحدة هناك ، محافظاً على هذا الـ "يوشاكوف" مثل كنز.

وهكذا - فعندما - أثناء مناقشة ما، أزعم معرفتى بتعبير حالم وباهت عند الإشارة إلى أغنية الاحتفال "هيا بنا نفرح" وأيام الدراسة الطائشة، فهذا يعنى أننى كنت أفكر فى "يوشاكوف" رغم أننا، والله يعلم، لم نتجاذب أطراف الحديث معاً سوى مرتين (عن أمور سياسية أو تفاهات أخرى، نسيت عما تحدثنا) ورغم ذلك ، فمن الصعب أن يبدو صوته غامضاً هكذا عبر التليفون.

سرحت وأنا أخمن، متخيلاً أنه أحد العملاء الشيوعيين ، الذى أصبح الآن مليونيراً غريب الأطوار، وفى حاجة إلى سكرتير.. جرس الباب . وثانية أندفع الصبيان إلى الصالة، فوضعت كتابى وسرت خلفهما. وبأدب شديد ومهارة فائقة سحبا المزلاج المعدنى الصغير، المزود بأداة أخرى ، فانفتح الباب.

وعاودتنى ذكرى غريبة... حتى الآن، الآن وقد تغيرت أشياء كثيرة، غاص قلبى بين ضلوعى عندما استدعيت مثل هذه الذكرى الغريبة، مثل استدعاء مجرم خطير من مخبأه . حينئذ شعرت كما لو أن جداراً بأكمله من حياتى قد تهاوى ، بلا ضجة على الإطلاق، كما لو كان فى فيلم صامت . وأدركت أن شيئاً ما يشبه الكارثة فى سبيله ليقع، رغم ذلك كانت - ولا شك - ثمة ابتسامة

على وجهى ، وإذا لم أكن مخطئاً كانت ابتسامة مداهنة ، ويدى - الممدودة - قررت ملاقاة الفراغ، متوقعة ذلك الفراغ ، وبلا شك قررت استكمال هذا الوضع (وفى ذهنى صاحبَ ذلك القرار إيقاع هذه الجملة "المجاملة الأولية").

وفى وجود هذه اليد الممدودة، جاءت أولى كلمات الضيف، عندما نظر إلى كفى المبسوطة، وقد كانت فى طريقها إلى الهاوية. ولا شىء مدهش فى عدم تعرفى على صوته منذ لحظة مضت فالصوت الذى جاءنى عبر التليفون ذى النبرة المشدودة المميزة، متشابهاً مع جرس مألوف، كان - نتيجة للهياج الشديد - صوتاً عريضاً لم أسمع قبل ذلك أبداً صوت إنسان مثله.

وظل هذا المشهد فى ذاكرتى مثل "صورة حية":

الصالة التى يغمرها ضوء شديد، وأنا لا أعرف ماذا أفعل بيدى المرفوضة ، و هناك صبى عن يمينى وآخر عن شمالى، كلاهما لا ينظر إلى الزائر بل إلى أنا، والزائر نفسه فى معطف المطر ذى اللون الزيتونى والعروات عند الكتف حسب الموضة، ووجهه الشاحب كما لو كان قد أصابه الشلل من "فلاش" مصور، بعينين جاحظتين وفتحتى أنف واسعتين وشفة مفعمة بالحقد أسفل شاربه المنسق ذى الجانبين المتساويين.

وعندئذ بدت منه حركة يصعب إدراكها، فلقد صدر صوت عند انفصال شفتيه عن بعضهما، وارتعشت خفيفاً العصا السوداء فى يده، ولم أستطع أن أرفع عينى

عن تلك العصا.

سألته: ما هذا؟ ما الأمر؟ قطعاً هناك سوء تفاهم .. بالتأكيد - سوء تفاهم.. وعند هذا الحد وجدت الوضع مذلاً ومستحيلاً ليدى التى لم تقبل رغم أنها لا زالت ممدودة فى توسل.

وفى محاولة غامضة لاستعادة كرامتى، تركت يدى لتستقر على كتف أحد تلاميذى ، فحدق الصبى فيها بارتياب واستنكار.

قال الزائر كمن يفشى سراً: أيها الرفيق الصالح، ابتعد ولو قليلاً، فأنا لن أؤذيهما ، ولست فى حاجة إلى حمايتهما. كل ما أحتاجه هو غرفة، لأننى سوف أنفض التراب عنك.

ضربنى. ورفعنى عالياً، شعرت بألم شديد فى كتفى الذى كاد أن يسحق، ومن فرط قوة الضربة ملت إلى أحد الجانبين، مما جعل المقعد "البامبو" يتدحرج من طريقى مثل شىء حى.

كشف عن أسنانه، وتأهب ليضربنى ثانية. هبطت الضربة على ذراعى المرفوع. هنا انسحبت وراوغت لأصل إلى غرفة الاستقبال وتبعنى. وهذه تفصيلة فضولية أخرى.

كنت أصرخ بأعلى صوتى، منادياً عليه باسمه ولقبه ، سائلاً إياه بصوت عال ماذا اقترفت فى حقه.

وعندما لحق بى ثانيةً ، حاولت أن أحمى نفسى

بوسادة جذبتها وأنا أجرى، لكنه أطاح بها من يدى.

صرخت - "هذا عار، أنا غير مسلح، هذا تعد وافتراء ستدفع جزاء ذلك..." واحتميت خلف أحد المناضد، وكما سبق، تجمد كل شيء للحظة مثل صورة.

وهكذا كان مكشوف الأسنان، بعصا مرفوعة، وخلفه، على جانبى الباب وقف الصبيان. وقد تكون ذاكرتى أصابها التنميط عند هذه النقطة. فساعدنى، حقيقة اعتقد أن أحدهما كان مائلاً ومستنداً بذراعيه على الحائط، بينما كان الآخر جالساً على ذراع المقعد، وكلاهما يتابعان بهدوء العقاب الذى وقع على.

فى الحاضر، كان كل شيء يتحرك مجدداً، وانتقلنا نحن الأربعة إلى الحجرة الأخرى، وانخفض مستوى هجومه بشكل واضح، وبدت يداى فى وضعهما المذل مثل ورقة فى شجرة تين، وعندئذ وجه إلى وجهى ضربة مفاجئة وفظيعة.

ومن المثير للفضول أننى - شخصياً - لم يكن فى استطاعتى أبداً أن أحمل نفسى على ضرب أى شخص، مهما كان تعديه علي سيئاً، والآن، وتحت وطأة عصا ثقيلة، لم أكن عاجزاً - فقط - عن رد الضربة (وغير متمكن من فنون القتال الرجالية..)، لكن فى هذه اللحظات من الألم والمهانة لم استطع أن أتخيل نفسى رافعاً يد في وجه رفيق، خاصة إذا كان هذا الرفيق غاضباً وقوياً، كذلك لم أحاول أن أفر إلى حجرتى حيث يوجد فى أحد

الأدراج مسدس اقتنيته، يالـ الغرابة، لإخافة الأشباح.

السكون التأملى لتمليذيّ، والأوضاع المختلفة التـى تجمدوا عليها مثل "الفريسكو" عنـد نهايـة هـذه الغرفـة أو تلك، الطريقة الكريمة التى تصرفا بها عندما أضاءا النـور فى لحظة دخولى غرفة الطعام المظلمة، كل هذا يجـب أن يكون هلوسـة ، انطباعـات مفككـة منحتهـا أهميـة ودوامـاً، وبالنسبة لهذه الحالـة فهـى اعتباطيـة مثـل صـورة ركبـة مرفوعة لسياسى أوقفتها الكاميرا على هذا الوضع الذى لا يشبه رقصة الـ "جيج" بقدر ما يشبه عبور بركة صغيرة.

وفى الواقع، يبدو أنهما لم يكونـا موجودين طـوال عملية تنفيذ الحكم فـيَّ. فعنـد لحظـة بعينهـا، وخوفـاً علـى أثـاث أبويهمـا ، بدا - تأديـة للواجـب - يطلبـان البوليـس (محاولـة سرعان مـا أجهضهـا الرجـل بزمجـرة رعديـة)، لكننى لا أعرف أين أضع هذه اللحظة، فـى البدايـة أم فـي ذروة المعاناة والرعب عندمـا سقطت فـى النهايـة مترنحـاً على الأرض، كاشفاً مؤخرتى المستديرة لضرباته، وظللت أردد بصوت أجش: كفاية ، قلبى ضعيـف.. كفايـة ، قلبـى ضعيف، قلبى.. ويمكننى أن أشير فى جملـة اعتراضيـة - دائماً يعمل بكفاءة تامة.

بعد دقيقة توقف كل ما سبق، وأشعل سيجارة لاهثاً بصوت عال، ومحركاً علبـة الكبريت لتخشـخش، وتجـول لبرهة، مقدراً الموقف، وعندئذ سمعته يقـول شيئاً مـا عـن "درس صغير" ثم ضبط وضع قبعته وخرج مسرعاً.

وفي الحال نهضت من على الأرض واتجهت إلى حجرتى ، وجرى الصبيان خلفى. حاول أحدهما أن يمرق إلى جوارى من الباب، فأوقفته بلكزة من كوعى، وكنت أعرف أنها تؤلم. أغلقت الباب، أغرقت وجهى بالماء، وكدت أبكى من ملمس الماء الكاوى لجلدى، عندئذ سحبت حقيبتى من تحت السرير وبدأت أعبئها. وكان الأمر صعباً، فظهرى يؤلمنى ويدى اليسرى لا تعمل بكفاءة.

وعندما خرجت إلى الصالة مرتدياً معطف المطر، وحاملاً حقيبتى الثقيلة ، عاود الصبيان الظهور. ولم ألق حتى نظرة خاطفة عليهما. لكننى وأنا أهبط السلم شعرت بهما يتابعانى من أعلى، وهما قابضان على الدرابزين.

وبعد درجات معدودة قابلت مدرسة الموسيقى الخاصة بهما، وكان يوم الثلاثاء هو يوم مجيئها، كانت فتاة روسية هادئة ومطيعة، ترتدى نظارة، وساقاها مقوستان.

ولم ألق عليها التحية ، بل أدرت عنها وجهى المنتفخ، وقد وخزنى صمت الموتى الذى صاحب دهشتها، فاندفعت إلى الشارع. وقبل أن أنتحر، أردت أن أكتب بعض الخطابات التقليدية، ويحتاج هذا خمس دقائق - على الأقل - أجلسها فى أمان.

لذلك استأجرت "تاكسى" وذهبت إلى عنوانى السابق، ولحسن الحظ كانت حجرتى المعتادة، شاغرة، والمرأة العجوز صغيرة الحجم - صاحبة المنزل كانت قد

بدأت فى ترتيب السرير حال وصولى، جهد مهدر، لكنها تتشكى لفترة طويلة، من ملء الدورق، سحب الأعمى - الارتعاد عند ملامسة حبل يتدلى أو شيء ما عندما تنظر لأعلى بفم أسود مفتوح.

وفى النهاية - بعد أن تطلق صيحة وداع ، ترحل.

هناك رجل تعيس مرتعش، صغير الحجم وسوقى، يرتدى قبعة سوداء ويقف فى منتصف الحجرة، ولسبب ما يفرك يديه. كانت هذه هى اللمحة التى التقطها لنفسى فى المرآة.

عندئذ - فتحت الحقيبة بسرعة، وأخرجت ورق الكتابة وظروفا، ووجدت قلما بائساً - قلم رصاص - عالقا فى جيبى، جلست إلى المنضدة وانتبهت مكتشفاً أنه ليس لدي من أكتب إليه. فلقد عرفت كثيرين ولم أحب أحداً.

ولهذا استبعدت فكرة الخطابات ، وكذلك تم استبعاد الباقي فلقد تخيلت - في غير وضوح - أننى يجب أن أرتب الأشياء، وارتدى كتاناً نظيفاً ، وأترك كل نقودى - عشرون مارك - فى ظرف مصاحبة بإشارة إلى من سيتلقاها.

الآن أدركت أننى قد قررت كل ما سبق، ليس الآن ، ولكن منذ فترة طويلة مضت، فى أوقات متنوعة، عندما اعتدت أن أتخيل - وأنا خالى البال - كيف يقدم الناس على إطلاق النار على أنفسهم . هكذا يكون قاطن المدينة الواثق ، والذى تسلم دعوة غيره متوقعة من صديق

ريفى، بدأت بحيازة دورق وزوج من الأحذية المتينة، ولا يرجع ذلك إلى احتمال الاحتياج لهما في الواقع، بل إلى اللاوعى بما لديه من أفكار مسبقة غير مجربة عن الريف بطرقاته الطويلة بين الغابات والجبال لكنه عند وصوله، لم يكن ثمة غابات أو جبال، لا شئ سوى مزارع منبسطة، ولا أحد لديه الرغبة فى الوقوف على الطريق السريع في هذا الحر والآن أدركت، مثل شخص يرى حقل لفت بدلا عن صورة كارت للأودية الصغيرة المنعزلة ولمساحات خالية فى الغابات، كم كانت تقليدية أفكارى السابقة عن اهتمامات ما قبل الانتحار، فرجل قرر أن يدمر نفسه هو بالضرورة بعيد جداً عن المسائل الدنيوية.

هكذا يكون الجلوس لكتابة وصيته، فى هذه اللحظة، فعلاً لا يشبهه إلا عبث إنهاء مراقبة شخص ما، حيث أنه بتدمير هذا الشخص لنفسه يدمر العالم بأكمله ويختزل الخطاب الأخير إلى غبار، وهكذا يصبح كل سعاة البريد، مثل دخان، لتتلاشى الممتلكات الموروثة إلى نسل غير موجود.

هكذا اتضح لى شىء طالما تشككت فيه وهو عبثية العالم.

وشعرت فجأة بحرية لا يمكن تصديقها، والحرية نفسها كانت إحدى علامات تلك العبثية.

أخذت الورقة المدون بها ملحوظة "العشرين مارك، ومزقتها إلى قطع صغيرة".

وخلعت ساعتى وظللت أخبطها على الأرض حتى توقفت .

ويحدث أن يتملكنى شعور، إذا رغبت، أننى أستطيع فى هذه اللحظة، أن أندفع إلى الشارع، وبجوفى أحاسيس شهوية مبتذلة، لأحتضن أية امرأة أختارها، أو أطلق الرصاص على أول شخص أقابله ، أو أحطم الباترينة الزجاجية لأحد المتاجر.. كان هذا كل ما استطعت التفكير فيه: فخيال بلا قانون أفقه محدود.

حشوت المسدس بحرص لكن دون إتقان ، وعندئذ أطفأت النور وأصبح التفكير فى الموت، الذى أرعبنى ذات مرة ، مسألة بسيطة وحميمية. كنت خائفاً، بل مرعوباً، من الألم الوحشى الذى قد تتسبب فيه الرصاصة، لكن أن تخاف من النوم الأسود المخملى، أو حتى من الظلمة لهو أمر مقبول ومفهوم أكثر من الأرق متعدد الألوان للحياة.

هراء - كيف يمكن أن يخاف المرء من شىء كهذا؟

واقفاً وسط الحجرة المظلمة، فككت أزرار القميص، وثنيت جذعى للأمام عند منطقة الحوض، وتحسست بيدى حتى حددت موقع القلب بين الضلوع. كان ينتفض مثل حيوان صغير أثناء نقلك له إلى مكان آمن، مثل فرخ أو فأر حقل، والذى لا تستطيع أن توضح له عدم وجود ما يخيف، بل على العكس فأنت تعمل لأجل

مصلحته . لكن قلبى كان حياً أكثر من ذلك، فلقد وجدته متمرداً بشكل ما، يضغط القفص الصدرى بإحكام ضد طبقة الجلد الرقيقة ، والتى يوجد تحتها عالم متحرك ينبض فى مرونة، ولذلك جذبت مرتبكاً ذراعى المثنى، بحيث لا يلمس المعدن صدرى العارى. عندئذ شجعت نفسى وأطلقت الرصاص.

كانت هناك صدمة شديدة ، وتردد خلفى صدى صوت مبهج، ومثل هذا الصدى لن أنساه أبداً.

سرعان ما حل محله صوت سريان الماء، ثم ضجيج لتدفق من الحلق، أخذت شهيقاً ، وغصت فى حالة سيولة ، كان كل شيء حولى وبداخلى فى حالة تدفق وحركة.

وجدت نفسى أركع على الأرض، مددتُ يدى لأستند عليها، لكنها غاصت فى الأرض التى بدت مثل مياه بلا قاع.

* * *

بعد فترة إذا كان الكلام عن الزمن ممكناً هنا، اتضح أنه بعد الموت يظل تفكير الإنسان حياً بواسطة القوة الدافعة.

كنت ملفوفاً داخل شيء ما - هل كان كفناً؟

ببساطة - هل كان ظلمة محكمة؟

بوضوح تام تذكرت كل شيء: إسمى، حياتى على الأرض - ووجدت راحة مدهشة أنه من الآن لا يوجد شيء يستحق القلق بشأنه.

وبمنطق مزعج ومفرح، انتقلت من الشعور غير المدرك للأربطة المحكمة، إلى فكرة المستشفى، وفى طاعة لإرادتى، تجسدت فى الحال المستشفى الشبحية حولي وأصبح لى جيران، مومياوات تشبهنى، ثلاثة على كل جانب.

ياله من شيء عظيم تفكير الإنسان، الذى يستطيع أن يتداعى بسرعة بعد الموت. وحدها السموات تعرف طول الفترة التى سينبض فيها ويخلق صوراً بعد أن أصبح مخى الميت بلا فائدة.

كانت الفجوة المألوفة مكان سنة مفقودة لازالت معى، وللمفارقة منحني ذلك بعض الراحة الكوميدية.

وكنت فضوليا بعض الشيء لأعرف كيف دفنونى، هل كانت هناك موسيقى قداس، ومن الذى جاء إلى الجنازة.

كم احتاج تفكيرى من المثابرة والإتقان، كما لو كان قد فقد نشاطه السابق، ليستنبط شكل المستشفى، وشكل الرداء الأبيض الذى يرتديه أشخاص يتحركون بين الأسرة، التى صدر عن أحدها ما يشبه الأنين البشرى.

وبراحة استسلمت لهذه الخيالات، بل استثرتها، ونخستها لتستمر حتى استطعت أن أخلق صورة كاملة طبيعية ، وظهرت الحالة البسيطة للجرح الطفيف الذى تسببت فيه رصاصة طائشة مرت بنظافة من خلال العضلة "المنشارية"، وظهر طبيب (الذى خلقته هو

الآخر)، وعجّل تأكيد حدسى المبهج.

عندئذ، بينما كنت أقسم ضاحكاً أننى أفرغت المسدس بغير إتقان، ظهرت السيدة العجوز صغيرة الحجم، مرتدية قبعة سوداء من القش تزينها ثمرات الكرز الحمراء، جلست جوار سريرى، وسألتنى كيف أشعر، وبمكر أشارت وهى تهز إصبعها أمامى إلى الإبريق الذى تحطم بسبب هذه الرصاصة.. أوه - يالبراعة وبساطة الطريقة التى فسر بها تفكيرى الرنين و القرقرة اليومية التى صاحبتنى إلى اللا وجود..!

تصورت أن القوة الدافعة - ما بعد الإنسانية - لتفكيرى سوف تكشف عن نفسها قريباً، لكن ظهر لى أنه حينما كنت على قيد الحياة، كانت مخيلتى شديدة الخصوبة لدرجة تكفى لأن يتبقى منها ما يدوم لفترة طويلة بعد موتى.

وواصلت تحقيق مفهوم الشفاء، وهكذا خرجت من المستشفى سريعاً وبدا لى أن استعادة مظهر شارع فى برلين لهو نجاح عظيم وبينما كانت أنزلق ببطء على أحد الأرصفة، حاولت فى وهن أن أجرب قدمى الضعيفتين واللتين - عملياً - لازلتا متحررتين من الجسد، وفكرت فى الشئون اليومية: كان على أن أصلح ساعتى، وأشترى بعض السجائر، وأننى لا نقود لدى.

حاصرت نفسى بهذه الأفكار ، ليست من النوع شديد الإزعاج، ولهذا السبب استدعيت منتشياً ملاحظة

"العشرين مارك" فتلون جلدى بلون أحمر داكن عندما تذكرت أننى قد مزقتها قبيل انتحارى، وفى تلك اللحظة شعرت بالحرية والحصانة.

على كل، الآن اكتسب تصرفى أهمية دفاعية معينة، وكنت سعيداً لأننى قيدت نفسى إلى نزوة سوداوية ولم أندفع فى مرح إلى الشارع، لأننى عرفت الآن أن تفكير الإنسان بعد الموت يتحرر من الجسد، ويواصل الحركة فى دائرة حيث يعاد الاتصال بين كل شىء كما كان من قبل، وتصاحبه درجة ما من الشعور، وعرفت أن عذاب المخطئ فى الآخرة يتركز تحديداً فى أن عقله العنيد لا يستطيع أن يجد السلام والسكينة حتى ينجح فى الكشف عن المتواليات المعقدة لأفعاله الأرضية المتهورة.

سرت عبر الطرقات المتذكرة، كل شىء يشبه الواقع إلى حد كبير، ورغم ذلك لا يوجد شىء يثبت أننى لست ميتاً وأن هذا المرور فى الشارع ليس سوى وهم من أوهام ما بعد الحياة ،فلقد رأيت نفسى -من الخارج- ماشية على سطح الماء كيفما وجد، وتلامس كلاهما وارتعبا مثل شبح بلا خبرة يتابع وجود شخص : بطانته الداخلية، ليله الداخلى، فمه، والمذاق فى الفم، جميعها يعرفها مثلما يعرف مظهر هذا الشخص.

وحملتنى حركة الطفو الميكانيكية إلى مكتبة (فينشتوك) حيث كانت الكتب الروسية ، تطبع باستمرار كى تسرى عنى، معروضة بوضوح فى الباترينة، ولجزء

من ثانية كانت بعض العناوين تبدو غير واضحة، ركزت عليها، فاتضحت . وكانت المكتبة خالية عندما دخلتها.

فقط كان في أحد الأركان فرن حديدي مشتعلاً بلهب باهت مثل جحيم القرون الوسطى. ومن مكان ما خلف طاولة سمعت صوت تنفس (فينشتوك) الذي يشبه الصفير وكان يغمغم بصوت متوتر: "لقد تدحرج هنا بأسفل.."... وبعد ذلك نهض، وهنا ضبطت مخيلتي (التي، في الحقيقة، كانت مدفوعة لتعمل بسرعة شديدة) في حالة من عدم الدقة:

فلقد كان لـ "فينشتوك" شارب، والآن لم يكن شاربه موجوداً.

لم يستطع خيالي أن ينتهي منه في الوقت المناسب، وهكذا جاءت المساحة الباهتة حيث يجب أن يوجد الشارب خالية من أي شيء سوى ظل أزرق.

"تبدو في حالة مزرية"، قالها كما لو كانت تحية، ياله الهول.

أجبت: نعم - كنت مريضاً في الحقيقة.

قال "فينشتوك" : الإنفلونزا منتشرة، ثم أضاف: لقد مر وقت طويل، أخبرني هل عثرت على وظيفة.

أخبرته أنني عملت لفترة مدرساً خاصاً، لكنني الآن فقدت هذا العمل، وأنني في حاجة ماسة لأن أدخن.

دخل زبون، وطلب قاموس "روسي - إسباني".

قال "فينشتوك": أظن لدي واحد، واستدار ناحية

الأرفف ومرر أصابعه على كعوب العديد من المجلدات ضخمة الحجم - قصيرة الطول. وقال: آهـ، هاهو قاموس "روسى - برتغالى".. له نفس الفائدة من الناحية العملية.

قال الزبون: سآخذه ، ورحل وفى يده هذا القاموس عديم الفائدة. وبعد برهة انتبهت لتنهيدة عميقة جاءت من مؤخرة المكتبة، ظهر بعدها شخص ما تغطيه الكتب، ومر علينا بخطى متثاقلة و هو يسعل .

سألت (فينشتوك): هل استأجرت مساعداً؟

أجاب بصوت منخفض: وسوف أفصله قريباً إنه عجوز بلا أية فائدة على الإطلاق. وأنا أحتاج إلى شخص أكثر شباباً.

- سألت "فيكنتى ليفوفيتش" كيف حال جماعة "بلاك هاند"؟

قال "فيكنتى ليفوفيتش فينشتوك" ، بتكبر وازدراء، إذا لم تكن متشككاً حقوداً كنت حكيت لك الكثير من الأشياء المشوقة . ولم يصبنى كلامه هذا سوى بقليل من الأذى، فلقد كان فى غير محله: فحالتى الشبحية، المفلسفة، عديمة الوزن كان يجب عليها أن تبدى تصميماً بطريقة أو أخرى، ولكن بدلاً عن ذلك أنتج خيالى محادثة صغيرة أخرى غير ممتعة.

أجبته: لا، لا يا "فيكنتى لفوفينتش"، لماذا تدعونى بالمتشكك؟ بالعكس - ألا تتذكر؟ فهذا العمل كلفنى فى وقت ما قدراً من المال.

وفى الحقيقة عندما قابلت "فينشتوك" سرعان ما وجدت فيه تلك السمة الشعبية فى روسيا، وهى الميل إلى الأفكار غير السوية فلقد كان مقتنعاً بأنه خاضع لمراقبة منتظمة من أشخاص معينين، أشار إليهم فى إيجاز غامض بـ "العملاء".

وألمح إلى وجود "قائمة سوداء" من المفترض ظهور اسمه بها. واعتدت على تعذيبه، رغم أننى كنت أرتعد فى داخلى . وذات يوم تملكتنى رغبة غريبة فى مقابلة رجل سبق وأتيحت لى فرصة أن ألاحظ أنه فى الصباح الباكر، على الطريق العام كان يتواجد هذا الرفيق الكئيب الأشقر بعينيه الماكرتين ، والآن هاهو يقف عند زاوية شارعى متظاهراً بقراءة صحيفة وعندئذ بدأت أشعر بعدم الارتياح. بدأت أوبخ نفسى، وأسخر فى عقلى من "فينشتوك"، لكننى لا أستطيع أن أفعل شيئاً مع مخيلتى ففى المساء أتخيل أن شخصاً ما كان يتسلق إلى الداخل عبر النافذة. وفى النهاية اشتريت مسدساً وهدأت تماماً وهذه هى التكلفة التى سبق وأشرت إليها.

أما أكثر ما يثير السخرية فهى مسألة "رخصة حمل سلاح" التى انتهت صلاحيتها الآن. قال لى فى حسم "بماذا سيفيدك امتلاك سلاح؟" إنهم فى براعة الشيطان، وثمة دفاع وحيد من الممكن أن يستخدم فى مواجهتهم : العقول ، "منظمتى"، وفجأة رمقنى بنظرة متشككة، كما لو كان قد قال أكثر من اللازم، هنا شحذت عقلى وحاولت

التفسير محافظاً على حالة المزاح، فلقد كنت فى موقف غريب، لم يتبق أحد أستطيع الاقتراض منه، ولازلت أحتاج إلى تكاليف المعيشة والتدخين ، وبينما كنت أقول كل ما سبق، أبقيت على استحضار شخص غريب عفوى بسنة أمامية مفقودة قدم نفسه ذات مرة إلى أم تلميذى ، وبنفس النغمة المازحة كان يؤكد أنه يجب أن يذهب إلى (فيسبادن) هذا المساء، ويحتاج تحديداً، إلى (تسعين بفنج).

وقالت له فى هدوء: حسناً، تستطيع الاحتفاظ بقصة (فيسبادن) لنفسك ، أما كل ما أجرؤ على قوله أننى أستطيع أن أعطيك (عشرين بفنج) أكثر من ذلك لا أستطيع ، وبوضوح هذا مبدأ.

والآن عندما تورطت فى هذا الوضع الموازى ، لم أشعر بأدنى خزى . فمنذ انطلاق الرصاصة ، تلك الرصاصة التي - في رأيي كانت قاتلة ، تابعت نفسي بفضول بدلاً عن التعاطف، والآن أصبح ماضى المؤلم قبل إطلاق الرصاصة - غريباً علىّ.

وتحولت هذه المحادثة مع (فينشتوك) إلى بداية حياة جديدة بالنسبة لى. فبالنسبة لنفسى أنا الآن مشاهد وتصديق الطبيعة الطيفية لوجودى أتاح لى ممارسات مسلية.

ومن السخف البحث عن قانون رئيسى والأسخف هو التوصل إليه.

وإذا بأحد الرجال الملهمين ، صغير الحجم، يقرر

أن تاريخ البشرية بأكمله يمكن تفسيره بواسطة العلامات الدوارة المخاتلة لدائرة الأبراج، أو بوصفه صراعاً بين بطن فارغ وآخر منتفخ ، ويقوم باستئجارشخص مادي النزعة حريص على اتباع الأوامر ليقوم بدور الكاتب، ويبدأ تجارة بالجملة في الفترات الزمنية والجماهير، وعندئذ الويل للنزعة الفردية الخاصة، ومع اتباعهما البائسين يرددون هتافاً يائساً وسط النمو الكثيف للدوافع الاقتصادية.

ولحسن الحظ لم يعد لمثل هذه القوانين وجود: فألم سنة سيؤدى إلى معركة ، ورذاذ يلغى عصياناً مسلحاً.

.. كل شيء سائل، كل شيء يعتمد على الفرصة ، كل شيء فارغ وعقيم.. مجهودات البرجوازية صعبة المراس بسراويلها الملونة الفيكتورية ، ومؤلف كتاب "رأس المال"، والنتيجة هى الأرق والصداع النصفى.

ثمة بهجة مضطربة فى التطلع إلى الماضى والتساؤل : "ما الذى كان ليحدث، إذا.."، مستبدلاً فرصة بأخرى ، ملاحظاً كيف، من لحظة فى حياة المرء تتسم بأنها رمادية ، وعقيمة ورتيبة ، ينبت حدث وردى معجز فشل أن يزهر فى الواقع.

ياله من شيء غامض، هذا الهيكل المتفرع للحياة: ففى كل لحظة تمر يشعر المرء بأنه على مفترق طرق، بين "هكذا" و"بطريقة أخرى"، وبعدد لا يحصى من الخطوط المتعرجة الباهرة ذات التفرع الثنائى والثلاثى ،

فى مواجهة الخلفية المظلمة للماضى.

كل هذه الأفكار البسيطة عن الطبيعة المترددة للحياة خطرت ببالى عندما فكرت فى السهولة التى قد يحدث بها أننى لم استأجر مطلقاً حجرة فى منزل يقع فى (٥) شارع بيكوك أو أقابل (فانيا) وأختها، أو (رومان بوجدانوفيتش)، أو أناساً آخرين وجدتهم فجأة وقد شرعوا فى العيش جميعاً حولي، على غير توقع أو رغبة منى.

ومرة أخرى - ماذا لو سكنت فى منزل مختلف بعد خروجى الطيفى من المستشفى ، ربما أصبحت سعادة، لا يمكن تخيلها ، رفيقاً مألوفاً أتحاور معه.. من يدرى، من يدرى..؟

فوقى، فى الطابق العلوى، عاشت أسرة روسية ، تقابلت معها عن طريق "فينشتوك"، واعتادت هذه الأسرة أن تأخذ منه الكتب - وسيلة مدهشة أخرى بواسطتها يتحكم الوهم فى الحياة..

وقبل أن نتعارف، كنا نتقابل غالباً علي درج السلم، ونتبادل نظرة حذرة مثلما يفعل الروس جميعاً وهم فى الخارج.

وسرعان ما لاحظت "فانيا" ، وسرعان ما أبدى قلبى ارتجافة، كما يحدث، فى حلم، عندما تدخل حجرة حلم آمنة وتجد بداخلها عند تتابع حلمك، فريستك فى أحد أركان هذا الحلم.

كانت لها أخت متزوجة تدعى (إيفجينيا) ، امرأة

صغيرة ذات وجه لطيف مربع الشكل يجعلك تفكر في كلب "بولدوج" ودود ووسيم، وهناك كذلك زوج (إيفيجينيا) ضخم الجثة فظ المظهر.

وذات مرة حدث في مدخل العمارة أنني أمسكت الباب مفتوحاً له، وبدت "ثانك يو - شكرا لك" بلكنته الألمانية "دنك" أقرب في إيقاعها إلى الحالة الظرفية للكلمة الروسية التي تعني "بنك" وبالمناسبة هو المكان الذي يعمل فيه.

ومعهم كانت تعيش (ماريانا نيكوليفنا)، وهي قريبة لهم، وفي الأمسيات كانوا سيتقبلون الضيوف، وتقريباً كانوا دائماً نفس الأشخاص. واعتبرت (إيفجينيا) بمثابة سيدة المنزل. وكانت تتمتع بحس فكاهي مرح، وهي التي أطلقت على أختها اسم "فانيا" ، عندما طلبت هذه الأخت أن تدعى بـ "مونا فانا" (على اسم بطلة إحدى المسرحيات) بعد أن وجدت أن اسمها الحقيقي (فارفارا) يشير بطريقة ما إلى البدانة وآثار البثور على الجلد.

واستغرقت قليلاً من الوقت لأعتاد على هذا التصغير للاسم الذكوري (إيفان) وتدريجياً بدأ يكتسب بالنسبة لي نفس الطيف الذي ضم "فانيا" إلى الأسماء النسوية الضعيفة.

كانت الأختان تشبه كل منهما الأخرى، فوضوح هيئة كلب "البولدوج" في ملامح الأخت الكبرى كان منعكساً على (فانيا) لكن بطريقة مختلفة أعارت جمال

وجهها أصالة وتفرداً.

كذلك عينا الأختين كانتا متشابهتين ، بنية – سمراء، بينهما اختلاف طفيف، ومنحرفتان انحرافاً طفيفاً، بثنيتين ضئيلتين لطيفتين على الجفون الداكنة.

تميزت عينا "فانيا" على أختها (إيفجينيا) بأنهما أكثر دكنة عند إنسان العين، وبأنهما مصابتان بقصر النظر، وكأن جمالهما جعلهما غير مناسبتين تماماً للاستعمال اليومى.

كلتا الفتاتين كانت سمراء ، وتصفف شعرها بنفس الطريقة: مفرق فى المنتصف ، وكعكة كبيرة محكمة تتدلى على مؤخرة العنق، لكن شعر الكبرى لم يكن ينساب بنفس النعومة الفردوسية، ويفتقر إلى ذات اللمعان القيم.

وددت لو تخلصت من "إيفيجينيا" تخلصت منها كلية لولا الحاجة إلى المقارنة بين الأختين ، وفى نفس الوقت عرفت أنه لولا التشابه ما كانت عذوبة "فانيا" لتكتمل.

فقط يداها ، "فانيا"، لم تكونا رائعتين، فلقد كان ثمة تعارض صارخ بين باطن يدها الباهت وبين ظهر اليد ذى اللون القرمزى الواضح والعقد الكبيرة، ودائماً ما كانت توجد ثنيات بيضاء صغيرة على أظافرها المستديرة.

أى قدر من التركيز، وأية كثافة يجب أن يكتسبها تحديق المرء، ليستطيع المخ استملاك الصورة البصرية لشخص؟

هاهما تجلسان على الأريكة ، "إيفجينيا" ترتدى

ثوباً مخملياً أسود، وتزين عنقها الأبيض بعقد كبير من الخرز، أما "فانيا" فترتدى ثوباً قرمزياً وحول عنقها لآلىء صغيرة محل الخرز الكبير.

وعيناها منخفضتان تحت حاجبيها الكثيفين السوداوين، ولا تخفى لمسات البودرة الخفيفة النمش الخفيف على مفرق حاجبيها الواسع.

وترتدى الأختان حذائين جديدين متماثلين، وتتبادلان النظر إلى قدميهما، وبلا شك لا يبدو نفس نوع الأحذية لطيفاً على قدم إحداهما كما يبدو على قدم الأخرى.

وها هى "ماريانا" طبيبة شقراء ذات صوت حازم، تتحدث إلى "سمروف" و"رومان بوجدانوفيتش" عن فظائع الحرب الأهلية فى روسيا.

و"خروشوف" زوج "إيفجينيا"، سيد مرح، وله أنف ممتلئ دائماً ما يتناوله بيده، يشده، يضغط عليه، يمسك بإحدى فتحتيه ويحاول أن يلويها ، ها هو يقف فى مدخل الحجرة الأخرى، يتحدث مع "موخين" .. الشاب الصغير ذي النظارة الأنفية ، ويقف كلاهما في مواجهة الأخر على جانبي المدخل ؛ مثل أطلسين جبارين. وكان لـ " موخين " والمهيب "رومان بوجدانوفيتش" علاقة طويلة بالأسرة، بينما "سمروف" فمن الممكن أن يُرى عليه البريق الذى يجعل الشخص واضح الوجود بين ناس يعرفون بعضهم جيداً، ويرتبطون معاً بالأصداء الراسخة للدعابات

الخاصة، وللرصيد المتضمن فى أسماء هؤلاء الأشخاص والتى تعد حية بالنسبة لهم وذات أهمية خاصة، مما يجعل الوافد الجديد يشعر كما لو أن القصة التى بدأ قراءتها من مجلة، قد بدأت بالفعل منذ فترة طويلة مضت ، بموضوعات قديمة غير متاحة، وأثناء إنصاته إلى المحادثة العامة الحافلة بالإشارات إلى أحداث غير معروفة له، يضطر الدخيل إلى الالتزام بالصمت، ويتجه بنظره إلى من يتحدث ، وكلما كانت الانتقالات أسرع زادت حركة عينيه، لكن سرعان ما يبدأ العالم الخفى الذى يحيا فى كلمات هؤلاء الأشخاص من حوله، فى قهره، ليتساءل فى اندهاش عما إذا كانوا لم يتعمدوا ابتكار هذه المناقشة التى تجعله يبدو غريباً.

وفى حالة "سمروف" ، حتى إذا شعر أحياناً أنه منبوذ ، فإنه بالتأكيد لا يظهر هذا الشعور.

ويجب أن أقول أنه ترك لدي انطباعاً مميزاً خلال الأمسيات الأولى . لم يكن طويلاً، لكنه متناسق القوام وأنيق.

وبدت "بدلته" السوداء البسيطة ورابطة العنق السوداء مناسبة ، بطريقة متحفظة، لجنازة سرية.

كان وجهه النحيف الشاحب دالاً على الشباب ، لكن المتأمل الحصيف يستطيع أن يتبين بقايا للندم والخبرة، أما تصرفاته فكانت ممتازة وثمة ابتسامة هادئة ، كئيبة لحد ما، عالقة بشفتيه.

كلامه قليل، لكن كل ما قاله كان متسماً بالذكاء وبأنه مناسب، ونكاته النادرة تثير هديراً من الضحك عندما يلقيها ، وتبدو كما لو كانت تفتح باباً سرياً فى الحديث، يسمح بدخول انتعاش غير متوقع. ويستطيع المرء تخمين أن "فانيا" لن تستطيع أن تحول دون إعجابها السريع به ، بسبب هذا التواضع النبيل المحاط بهالة من الغموض ، وبسبب شحوب جبهته وأسطوانية يده.. أشياء بعينها، مثل طريقة نطقه لكلمة "blagodarstvuyte" وتعنى شكراً، التى تخلو من التداخل المعتاد بين الحروف، بما يحفظ لها رونق الحروف الساكنة، كافية لتكشف للمتأمل الحصيف أن "سمروف" ينتمى لأفضل طبقات المجتمع فى "سان بطرسبرج".

صمتت "ماريانا" لبرهة أثناء تعليقها على فظائع الحرب، فلقد لاحظت أخيراً أن "رومان بوجدانوفيتش"، رجل مهيب ذو لحية ،أراد أن يعلق بكلمة عالقة فى فمه مثل قطعة حلوى كبيرة ورغم ذلك لم يكن محظوظاً ، لأن "سمروف" كان أسرع بقول " عندما أنصت إلى الكلام عن فظائع الحرب"، هكذا بدأ "سمروف" كلامه وهو مبتسم، مستشهداً بمقتبس مغلوط من قصيدة مشهورة، أشعر بالأسى "لا من أجل الصديق، أو من أجل أمه" لكن لهؤلاء الذين لم يذهبوا للحرب أبداً فمن الصعب أن تحمل الكلمات بالبهجة الموسيقية التى تمنحها لك الرصاصات عندما تغنى... أو عندما تطير بمنتهى السرعة لتبدأ الهجوم.

قاطعته "ماريانا" بحدة : "الحرب بشعة فى كل الأحوال"، أنا مختلفة معك تمام الاختلاف، فالإنسان الذى يسلب آخر حياته هو بالضرورة قاتل، سفاحاً كان أو ضابطاً فى سلاح الفرسان. "من وجهة نظرى الشخصية"، هكذا حاول "سمروف" أن يبدأ، لكنها قاطعته ثانية: البسالة العسكرية أثر من الماضى، فى ممارستى الطبية كانت لدى مواقف متعددة لأرى الناس الذين أصبحوا معاقين أو حطمت الحرب حياتهم، وفى هذه الأيام تتوق الإنسانية إلى مثل جديدة. لا شىء أكثر حقارة من القيام على خدمة مدفع لتلقمه طعامه، ربما التنشئة مختلفة.

قال "سمروف": من وجهة نظرى الشخصية..

وأكملت سريعا: تنشئة مختلفة ، من حيث الأفكار عن الإنسانية ، والاهتمامات الثقافية العامة، تجعلنى أنظر إلى الحرب بعينين مختلفتين عن عينيك، فأنا لم أطلق النار على الناس أو أطعنهم بحربة.

وحسبما أكد الناس، يمكنك أن تقابل بين زملائى الأطباء أبطالاً يفوقون الموجودين فى ميدان المعركة.

قال "سمروف" : من وجهة نظرى الشخصية.

قالت "ماريانا" هذا يكفى أستطيع أن أرى استحالة أن يقنع أحدنا الآخر، المناقشة انتهت. تلى ذلك صمت قصير. جلس "سمروف" هادئاً يقلب شايه بالملعقة، نعم يجب أن يكون ضابطاً سابقاً، متهوراً أعجبه أن يعبث مع الموت، فقط التواضع هو ما جعله لا يقول شيئا عن مغامراته.

"ما أردت قوله أنك أشرت إلى "كونستانتينبول" ، ووجه "رومان بوجدانوفيتش" كلامه بصوت عال إلى "ماريانا نيكوليفنا" ، كان لي صديق مقرب هناك يعيش بين زحام المهاجرين، كان من "كشمير" تعاركت معه، فلقد كان شديد الخشونة حاد المزاج، رغم ما كان يبديه من هدوء أثناء الصيام، وكان طيباً لكن بطريقته.

حدث ذات مرة أنه ضرب رجلاً فرنسياً ضرباً كاد أن يقضي عليه، ذلك بسبب الغيرة حسناً - لقد حكى لي الحكاية التالية وهي تعطي فكرة عن العادات والتقاليد التركية، تخيل... وهنا تدخل "سمروف" وعلى شفتيه ابتسامة: ضرباً مبرحاً؟

أوه - حسن ، هذا ما أود.

"حتى الموت" كررها "رومان بوجدانوفيتش"، وانهمك في حكايته. داوم "سمروف" على هز رأسه أثناء إنصاته.

كان واضحاً أنه شخص يخفي وراء صمته وهدوئه ، روحاً متقدة. بلا شك كان قدراً، في لحظة غضب عارم، أن يحول بلكمة فكاً إلى كسرات، وفي لحظة هيام يأخذ فتاة معطرة ومرتعشة تحت عباءته في ليلة عاصفة ، إلى قارب بمساند مجداف مبطنة، تحت غطاء من ضوء القمر وشجر المن، كما فعل شخص ما في حكاية "رومان بوجدانوفيتش".

وإذا كان لدى "فانيا" أية خبرة بالشخصية كانت

ستلاحظ هذا دون شك.

"ودونت كل ذلك بالتفصيل فى يومياتى" هكذا اختتم "رومان بوجدانوفيتش" حكايته برضا، وأخذ رشفة من الشاى.

ثانية تجمد "موخين" و"خروشوف" كل إلى جوار عضادة الباب التى تخصه. وبنفس حركة اليد، فردت كل من "فانيا" و"إفجينيا" ثوبهما عند الركبة، أما "ماريانا" فثبتت نظرتها على "سمروف" بلا سبب واضح وقد كان يجلس بحيث يواجهها جانب وجهه - واستكمالاً لوصفة تقلص عضلات الوجه المناسبة لرجل قوى - داوم الضغط على عضلة فكه فى مواجهة نظرتها غير الودودة.

أنا معجب به نعم بكل وضوح أنا معجب به.. وشعرت بأنه كلما زاد التعمد فى تحديق "ماريانا" الطبيبة المثقفة ، زاد وضوح وتناغم صورة المتهور الشاب ذى الأعصاب الفولاذية، والشاحب بسبب الليالى التى قضاها مستيقظاً فى أودية ضيقة جرداء، وفى محطات سكك حديدية متهدمة. هكذا يبدو كل شيء على ما يرام.

* * *

كان "فيكنتى لفوفيتش فينشتوك" يعرف أقل مما يعرفه الآخرون عن "سمروف" الذى يعمل عنده كبائع (خلفاً للرجل العجوز عديم النفع)، فلقد كانت تشوب طبيعة "فينشتوك" لمحة جذابة من الإهمال وربما لهذا السبب استأجر شخصاً ما لا يعرفه جيداً ، فتشككه يحتاج إلى

تغذية دورية.

ومثلما يوجد أن أشخاصاً عاديين ومحترمين تماماً يتحولون فجأة إلى جمع فراشات "الدراجون فلاى" أو "فراشات انجرافينجز" هكذا "فينشتوك"، حفيد بائع الخردة وابن بائع التحف، الرزين المتوازن والذي قضى حياته فى أعمال متعلقة بالكتب، انشأ عالماً صغيراً منفصلاً يخصه وحده.

وهناك، فى منطقة الظل الناقص، وقعت أحداث غامضة ، وأثارت الهند احتراماً غامضاً بداخله: كان واحداً من هؤلاء الناس الذين، عند الإشارة إلى "بومباى"، تلقائياً لا يتخيلون خادماً للحضارة البريطانية جلده داكن اللون من الحرارة، بل يتخيلون ناسكاً كان يعتقد فى "جلب النحس" و"ممارسة السحر" ، وفى الأرقام السحرية والشيطان، فى العين الحاسدة والقوة الكامنة بالأشكال والعلامات، وفى التماثيل البرونزية عارية البطن.

فى المساء، كان يضع يديه، مثل عازف بيانو متحجر، فوق منضدة صغيرة ، خفيفة، وذات أرجل ثلاثة، عندئذ تبدأ فى الصرير بخفوت ، مثيرة صوتاً يشبه الطقطقة، فيستجمع قوته ويصعد فوق أحد الجوانب ثم يدق بقدمه، بطريقة خرقاء لا تخلو من قوة، على الأرض. ويتلو "فينشتوك" حروف الهجاء. وتتبعه المنضدة الصغيرة وتنقر الحروف المقابلة لما يتلوه.

كانت الرسائل تأتى من "القيصر" ، "محمد"، "

بوشكين "، وابنِ عم ميت لـ "فينشتوك".

وأحياناً تصبح المنضدة خرقاء، فترتفع وتظل معلقة فى الهواء، أو تهاجم "فينشتوك" وتضربه فى معدته، فيقوم "فينتشوك" ، فى ود وبهجة، بتهدئة الروح مثل مروض حيوانات يقوم بمناورة حيوان لعوب، ويتراجع خلال كل أرجاء الحجرة محافظاً على وجود أطراف أصابعه على المنضدة التى تتهادى خلفه.

وبالنسبة لأحاديثه مع الأموات، استخدم صحناً موسوماً بعلامة و أداة أخرى غريبة الشكل يبرز قلم رصاص أسفلها.

كانت هذه المحادثات تسجل فى كراسات مخصوصة.

وقد يأتى الحوار بالتتابع التالى:

– فينشتوك: هل عثرت على الراحة؟

* لينين: ليست "بادن – بادن".

– فينشتوك: هل ترغب أن تخبرنى عن الحياة بعد القبر؟

* لينين (بعد فترة صمت): أفضل ألا أفعل.

– فينشتوك: لماذا؟

* لينين : أنتظر حتى تكتمل الجلسة.

وتراكمت أعداد كبيرة من هذه الكراسات ، واعتاد "فينشتوك" أن يقول أنه فى يوم – ما – سيحظى بأكثر المحادثات أهمية.

وهناك شبح مسل جداً، يدعى (أبوم)، أصله مجهول ، وقح وثقيل الظل، كان بمثابة الوسيط الذى يرتب المحادثات بين "فينشتوك" وكثير من الشخصيات المشهورة، وكان يتعامل مع "فينشتوك" بألفة سوقية.

– "فينشتوك" من أنت أيها الروح؟

* صوت: إيفان سيرجيفتش.

– " فينشتوك" : أي ايفان سيرجيفتش ؟

* صوت : معتوه.

– "فينشتوك": لماذا تهينني؟

* صوت (تهتز المنضدة): خدعتك ! أنا (أبوم).

.. وفى بعض الأحيان عندما يبدأ (أبوم) مزاحه الخشن، يستحيل التخلص منه طوال جلسة تحضير الأرواح ، عندئذ يتذمر "فينشتوك" قائلاً: إنه شيء مثل قرد.

وكان شريك "فينشتوك" فى هذه الألعاب سيدة صغيرة الحجم، وردية الوجه، ذات شعر أحمر، ويدين صغيرتين ممتلئتين، تفوح منها رائحة لبان برائحة "الأوكالبتوس" ودائما مصابة بالبرد.

وعلمت بعد ذلك أن بينهما علاقة منذ فترة طويلة، لكن "فينشتوك"، الذى فى مواقف محددة يكون فريداً فى صراحته، لن ينطق بشى عن هذه العلاقة مطلقاً.

وكانا يناديان أحدهما الآخر باسمه وباسم عائلته، ويتصرفان كما لو كانا صديقين حميمين .

وكثيراً كانت تمر على المكتبة ، تجلس بالقرب من الموقد لتدفئ نفسها. وتقرأ جريدة "ثيوصوفية" سبق نشرها فى "ريجا" .كانت تشجع "فينشتوك" فيما يقوم به من تجارب مع العالم الآخر، واعتادت أن تحكى كيف أن الأثاث فى حجرتها يعود إلى الحياة بشكل دورى، وكيف تطير مجموعة من ورق اللعب من بقعة إلى أخرى ، أو تنثر نفسها على أرض الحجرة . وكيف أن المصباح المجاور لسريرها يقفز من المنضدة ليبدأ فى تقليد كلب يشد بشراسة، المقود المقيد به، وفى النهاية تنخلع الفيشة، ويسمع صوت عدو فى الظلام، ولاحقاً يعثر على المصباح فى الصالة، إلى جوار باب الشقة الأمامى .

واعتاد "فينشتوك" أن يقول ؛ واحسرتاه ؛ أن القوة الحقيقية لم تمنح له، فأعصابه فى تراخى حمالات البنطلون القديمة، بينما الأعصاب متوسطة النشاط تكون مثل أوتار آلة الهارب.

على كل، لم يكن يؤمن "بالتجسد"، ومن باب الفضول فقط احتفظ بصورة فوتوغرافية أعطاها له أحد الروحانيين تظهر فيها امرأة بدينة وقصيرة بعينين مغلقتين تتقيأ كتلة تشبه سحابة مزهرة.

كان مغرماً بـ "إدجار آلان بو" و"باربى دى أورفيلى" بمغامراتهما واكتشافاتهما، وأحلامهما النبوئية ، وبمجتمعاتها السرية.

فوجود التجمعات الماسونية ، نوادى المنتحرين،

الجماهير الفاشستية، وبالأخص العملاء السوفيت الذين يرسلون من (هناك) - كم هو فصيح ومرعب الترنم بكلمة "هناك" - ليراقبوا أحد المهاجرين البائسين ، وجود كل ذلك يحوّل برلين بالنسبة لـ "فينشتوك" إلى مدينة العجائب، بداخلها يشعر بأنه في وطنه تماماً.

ولابد سيلمح إلى أنه كان عضواً فى منظمة كَبيرة، مكرسة - فيما يبدو - إلى حل وتمزيق الشبكات الرقيقة التى غزلها عنكبوت معين ذو لون قرمزى لامع، وقد أعاد "فينشتوك" إنتاج هذا العنبكوت على خاتم مبهرج ومفزع يضفى غرابة ما على يده المشعرة.

"إنهم فى كل مكان" هكذا سيقول باهتمام تام، فى كل مكان ، إذا ذهبت إلى حفلة حيث يتواجد خمسة عشر، أو عشرون شخصاً، بالتأكيد تستطيع أن تجد بينهم، نعم بالتأكيد، عميلاً واحداً على الأقل.

لنقل أننى أتحدث مع "إيفان إيفانوفيتش" فمن يستطيع أن يقسم أن "إيفان إيفانوفيتش" يمكن الوثوق به؟

أو لنقل أن هناك رجلاً يعمل لديّ فى أحد مكتباتى - أى نوع من المكتبات - ليست بالضرورة هذه المكتبة (أرغب فى الاحتفاظ بكل الأمور الشخصية بعيداً عن هذا، تفهمنى..) - حسناً ، كيف أستطيع معرفة أنه ليس عميلاً ؟ إنهم فى كل مكان، أكرر فى كل مكان.. إنها جاسوسية ماكرة ومتقنة.." .. أذهب إلى حفل، كل الضيوف يعرفون بعضهم البعض، ورغم ذلك لا شىء يضمن أن هذا

الشخص المتواضع المهذب (إيفان إيفانوفيتش) ليس في الحقيقة..

وأومأ "فينشتوك" برأسه إيماءة لها معنى.

سرعان ما بدأت أشك أن "فينشتوك" رغم حرصه الشديد، كان يشير إلى شخص محدد.

وبشكل عام، مهما كان من يتحدث معه، سوف يخرج بإنطباع أن "فينشتوك" إما يقصد محاوره أو صديقاً مشتركاً.

أما أكثر الأشياء الجديرة بالملاحظة فهي، ويستعيد "فينشتوك" هذه الحادثة - بفخر - أن حاسته لم تخدعه: فالشخص الذي يعرفه جيداً، الصديق، سهل المعشر، الصادق مثل أحد أتباع الرب (حسب تعبير "فينشتوك") واقعياً يتحول إلى سوفيتي جبان وحاقد.

وتكون لدى انطباع بأنه سيكون أقل أسفاً عندما يترك جاسوساً يفلت من أن يفقد فرصة يُلمح فيها للجاسوس بأنه، "فينشتوك" ،قد اكتشفه.

و"سمروف" حتى لو كان يحيط به الغموض، ولو كان ماضيه يبدو غير واضح، هل من المحتمل أن يكون........؟

على سبيل المثال، أراه خلف الطاولة في بدلته السوداء البسيطة ، وشعره الممشط الناعم، بوجهه واضح القسمات الشاحب.. وعندما يدخل زبون، يطفئ سيجارته التي لم ينته من تدخينها على حافة منفضة السجائر ،

ويفرك يديه النحيلتين، يحضر باهتمام احتياجات المشترى أحياناً - خاصة إذا ما كان الأخير سيدة - يبتسم ابتسامة خافتة، ليعبر إما عن الاهتمام بالكتب بشكل عام، أو ربما سخرية من نفسه وهو يقوم بدور البائع، ويعطى نصيحة ذات قيمة: هذا أحق بالقراءة، بينما ذلك صعب بعض الشيء، هنا الصراع الأبدى بين الجنسين موصوف بأكثر الطرق إمتاعاً ، وهذه الرواية ليست عميقة لكنها رائعة، مسكرة، أتعرفين، مثل الشمبانيا.

وتصطحب معها السيدة التى اشترت الكتاب، السيدة ذات الشفاه الحمراء والبالطو الفرو الأسود، صورة جذابة، اليدان الرقيقتان اللتان تلتقطان الكتب بتؤده، الصوت اللطيف، الابتسامة المرفرفة ، والتصرفات المثيرة للإعجاب.

وفى عائلة "خروشوف" ، كان "سمروف" - قد بدأ يترك انطباعاً مختلفاً على شخص ما.

كانت حياة هذه الأسرة فى (٥ شارع بيكوك) فائقة السعادة. كان والد "إيفجنيا" و"فانيا" والذى يقضى جزءاً كبيراً من العام فى لندن، يرسل لهما شيكات سخية، كذلك كان "خروشوف" يحقق دخلاً ممتازاً.

على كل - لم يكن ذلك هو المهم: فحتى لو كانوا بلا نقود، لن يتغير شيء، ستحاط الأختان بنفس نسائم السعادة، الآتية من اتجاه مجهول ورغم ذلك يشعر بها أكثر الزوار كآبة وفقداناً للإحساس.

يبدو الحال كما لو أنهما قد ابتدأتا رحلة مبهجة: فهذا الطابق العلوي يبدو كما لو كان ينزلق مثل منطاد، ولا يستطيع المرء تحديد بدقة مصدر تلك السعادة.

نظرت إلى "فانيا"، وبدأت اعتقد أننى اكتشفت المصدر، فسعادتها تكمن فى أنها لا تتحدث. أحياناً تسأل سؤالاً مختصراً، وعند حصولها على الإجابة تعود سريعاً إلى صمتها، محدقة فيك بعينيها الجميلتين ذات النظرة المندهشة والمصابة بقصر النظر. ذات مرة سألت (سمروف). أين والداك؟

أجاب: "في فناء كنيسة بعيدة" ولسبب ما خفض رأسه لأسفل قليلاً. قالت : "إيفجينيا" التى كانت تتقاذف كرة "بنج - بونج"، فى يدها، أنها تستطيع أن تتذكر أمها بينما "فانيا" لا تستطيع.

فى هذه الأمسية لم يكن إلى جوار "سمروف" أحد سوى "موخين" الذى من الصعب اجتنابه : فلقد ذهبت "ماريانا" إلى حفل موسيقى، و"خروشوف" كان يعمل فى حجرته، أما "رومان بوجدانوفيتش" فلقد مكث فى بيته كعادته كل يوم جمعة ليكتب مذكراته.

فى هدوء، جلس "موخين" المتأنق صامتاً، ومن حين إلى آخر يضبط مشبك، النظارة الأنفية فوق أنفه النحيف.

كان فى منتهى الشياكة، ودخن سجائر إنجليزية

أصلية . انتهز "سمروف" فرصة صمت "موخين" وأصبح فجأة ثرثاراً أكثر من المرات السابقة مخاطباً بالأساس "فانيا"، بدأ يحكى كيف هرب من الموت.

قال "سمروف" حدث ذلك فى "يالطا Yalta" عندما كانت القوات الروسية البيضاء قد غادرت تواً، رفضت أن يقوموا بترحيلى مع الآخرين، فلقد خططت لتشكيل وحدة مناصرة للقوات البيضاء تبدأ فى مقاتلة القوات الحمراء.

فى البداية اختبأنا فى التلال.. وخلال إحدى المواجهات تعرضت للإصابة.. مرت الرصاصة مباشرة فى جسدى، وبالكاد أخطأت رئتى اليسرى، وعندما أفقت وجدت نفسى ممدداً على ظهرى، بينما النجوم تسبح فوقى. ماذا فى وسعى، كنت أنزف حتى الموت، وحيداً فى أحد التحصينات الجبلية.

قررت أن أحاول الذهاب إلى "يالطا" رغم ما فى ذلك من مجازفة كبيرة، لكننى لم أستطع التفكير فى أية طريقة أخرى.

تطلب ذلك مجهوداً فائقاً. سافرت طوال الليل ، وغالباً كنت أزحف على يدى وركبتى، وأخيراً، عند الفجر، وصلت إلى (يالطا).

كانت الشوارع لا تزال غارقة فى النوم. فقط من ناحية محطة السكة الحديد تناهى إلى أذنى صوت طلقات ، بلا شك كان أحد الأشخاص يعدم هناك.

كان لى صديق طيب، يعمل طبيباً للأسنان، ذهبت

إلى منزله وصفقت أسفل النافذة ، خرج ليرى من ، تعرف عليّ، وسمح لى بالدخول على الفور.. واستلقيت مختبئا عنده حتى شفى جرحى.

وكانت له ابنة شابة قامت بتمريضى بمنتهى التعاطف، لكن هذه قصة أخرى.

كان واضحاً أن وجودى قد عرض منقذى إلى خطر رهيب، لذا كنت أتعجل المغادرة، لكن إلى أين أذهب؟.

فكرت فى ذلك مراراً، وقررت الرحيل شمالاً، حيث يشاع أن الحرب الأهلية قد عاودت الاندلاع مجدداً.

وهكذا، ذات مساء عانقت صديقى الطيب مودعاً إياه، منحنى بعض النقود، التى - بإذن الله - سوف أردها له يوماً ما، وها أنا أمشى مجدداً فى شوارع "يالتا" المألوفة. كانت لى لحية ونظارة، وأرتدى جاكيت عسكرياً قديماً ، توجهت مباشرة إلى المحطة ، حيث كان يقف أحد جنود الجيش الأحمر عند مدخل الرصيف يفحص الأوراق.

كان لدى "جواز سفر يحمل اسم "سوكولوف" طبيب بالجيش. رمقنى الحارس الأحمر بنظرة متفحصة ، ثم رد لى الأوراق، وكان كل شىء سيمر على خير لولا هذه الخردلة الغبية من سوء الحظ فجأة سمعت صوت امرأة تقول بهدوء تام: "إنه من البيض، أعرفه جيداً". حاولت أن أتماسك وأتظاهر بالثقة وأنا أمر إلى الرصيف

دون تلفت. ولم أكد أسير ثلاث خطوات حتى سمعت صوتاً، لرجل هذه المرة، يصرخ "توقف!". فتوقفت. أحاط بى جنديان وامرأة بدينة متوردة الخدين ترتدى قبعة عسكرية من الفراء. قالت المرأة: "نعم" إنه هو"، خذاه.

تعرفت على هذه الشيوعية و كانت تعمل فى السابق كخادمة لدى أحد أصدقائى. واعتاد الناس أن يتندروا بأنها تميل إلى، لكننى دائماً ما وجدت بدانتها وشفتيها الشهوانيتين عوامل منفرة لى.

بعد ذلك ظهر ثلاث جنود آخرين وأحد المفوضين من الحزب الشيوعى يرتدى ملابس نصف عسكرية.

قال : تحرك. تصرفت بلا مبالاة، وأشرت ببرود إلى ضرورة وجود خطأ ما.

قال المفوض: "سنبحث ذلك الأمر فيما بعد".

ظننت أنهم سيأخذوننى حيث يستمر استجوابى، لكننى سرعان ما أدركت وجود أشياء أسوأ من ذلك بقليل. فعندما وصلنا إلى مستودع شحن يقع خلف المحطة مباشرة، أمرت أن أخلع ملابسى وأقف مقابل الجدار.

رفعت يدى داخل الجاكيت العسكرى، متظاهراً بفك أزراره، وفى اللحظة التالية أطلقت الرصاص على جنديين بمسدسى الـ "براوننج"، جريت إنقاذاً لحياتى. وبالطبع أطلق الباقون الرصاص على.

وأطاحت رصاصة بالكاب من فوق رأسى. جريت حول المستودع، وقفزت فوق سور، وأطلقت

الرصاص على رجل هاجمنى بمجراف، وانطلقت أجرى بين قضبان السكك الحديدية، وقفزت إلى الجانب الأخر أمام قطار يقترب لتفصلنى عربات القطار عمن يطاردونى، وواصلت الفرار.

استمر "سمروف" يحكى كيف أنه تحت جنح الظلام، مشى إلى البحر، ونام بين بعض البراميل والحقائب فى الميناء، واستولى على كيس بقسماط وزجاجة من خمر الـ "كرميان". وقرب الفجر، فى الضباب، أبحر بمفرده فى قارب صيد، ليتم انقاذه بعد خمسة أيام من الإبحار وحيداً بواسطة مركب شراعى يونانى.

وتحدث بصوت هادئ، حقيقة، يكاد يكون أحادى النغمة، كما لو كان يتحدث عن أمور عادية.

أصدرت "إيفجنيا" صوتاً يدل على التعاطف، وأنصت "موخين" بتعاطف وحصافة، ومن حين لآخر يجلى حنجرته بهدوء، كما لو كان لا يستطيع منع نفسه عن الشعور بالإثارة تجاه الحكى، والشعور بالاحترام و ربما الحسد - حسد صحى ونافع - تجاه رجل واجه؛ بلا خوف وبصراحة، الموت.

بالنسبة لـ "فانيا" - لا، لم يعد من مجال لمزيد من الشك، فبعد ما كان لابد قد مالت لـ "سمروف". كم كانت رموشها ساحرة وهى تؤكد حديثه، وكم كان ارتعاشها مبهجاً عندما أنهى "سمروف" حكايته، وبأية نظرة رمقت

أختها – نظرة جانبية ناعمة وخاطفة – لتتأكد أن الآخرين لم يلحظوا إثارتها.

.. ساد الصمت.. فتح "موخين" علبة سجائره المعدنية التى تشبه مسدساً.

فى قلق نبهت "إيفجينا" نفسها أن الوقت قد حان لتدعو زوجها ليتناول الشاى لكنها اتجهت إلى المدخل وقالت بصوت غير مسموع شيئاً ما عن "الكيك". فقفزت "فانيا" من فوق الكنبة وخرجت هى الأخرى، التقط "موخين" منديلها من فوق الأرض ووضعه بحرص على المنضدة.

سأل "سمروف": هل أستطيع تدخين سيجارة من سجائرك؟

قال "موخين": بالتأكيد.

قال "سمروف": دائماً ما يكون للسجائر الإنجليزية رائحة حلوى الخوخ.

قال "موخين" : أو "المولاس" لسوء الحظ. وأضاف بنفس نبرة الصوت.. لم يكن فى "يالطا" محطة سكك حديدية.

كان ذلك غير متوقع وشنيع . فقاعة الصابون المذهلة، المائلة إلى الزرقة، المشابهة لقوس قزح، مع الانعكاس المنحنى للنافذة على سطحها اللامع، تكبر الفقاعة وتتمدد، وفجأة لا يصبح لها وجود هناك، وكل ما

يتبقى مجرد أثر لبقايا رطوبة تخبطك في وجهك. قال "موخين"، مخترقاً الصمت غير المحتمل، قبل الثورة - حسب ما أعتقد - كان هنا مشروع سكك حديدية للربط بين "يالطا" و"سمفربول". وأنا أعرف "يالطا" جيداً، ذهبت إليها عدة مرات، قل لي، لماذا، اخترعت كل هذا الهراء؟!

بالطبع استطاع "سمروف" إنقاذ الموقف، استطاع التملص منه باختراع شيء ما جديد وماهر، بوصفه الملاذ الأخير، مدعماً بنكتة مضحكة ما تفتت نتيجة لهذه السرعة المذهلة.

ولم يفقد "سمروف" هدوءه فقط، لكنه فعل أسوأ الأشياء الممكنة، خفض صوته، وقال بصوت متحشرج: "أرجوك" أتوسل إليك، أجعل هذا الأمر بيني وبينك فقط".

كان واضحاً أن "موخين" شعر بالخجل لهذا الرفيق المسكين المذهل، ضبط نظارته الأنفية، وابتدأ قول شيء ما لكنه توقف لفترة قصيرة، فلقد عادت الأختان في هذه اللحظة.

وأثناء تناول الشاي، بذل "سمروف" مجهوداً عنيفاً ليبدو مرحاً. لكن بدلته السوداء الرثة المبقعة، ورابطة العنق الرخيصة، المعقودة عادة بطريقة تبدو كما لو كانت تخفي مكاناً تالفاً، والليلة كشفت عن أثر لجرح مثير للشفقة وعن بثرة لامعة تبدو من خلال بقايا بنفسجية اللون لبودرة "التالك" على ذقنه.

إذن - هذا كل شيء.. فبعد كل ما سبق لا يوجد -

فى الحقيقة - أى لغز بشأن "سمروف" ، فهو مجرد ثرثار عادى، ومن الآن بلا قناع؟ فهذا كل شىء...

لا- اللغز باق. فذات مساء، فى منزل آخر، اكتسبت صورة "سمروف" بعداً جديداً وغريباً، كان يدرك بالكاد فيما سبق.

كان السكون والظلمة يسيطران على الحجرة. وهناك مصباح صغير فى الركن تظلله صحيفة ، ولقد اكسب ذلك الصفحة المعتادة للصحيفة جمالا شفافاً مذهلاً، وفى هذا الحالة من الظل الناقص، تحولت المحادثة فجأة إلى "سمروف".

بدأ بكلام تافه. ففى البداية كان الكلام متشظياً وغامضاً، وبعد ذلك توالت التلميحات إلى اغتيالات سياسية حدثت فى الماضى، ثم ذكر الاسم المرعب لعميل مزدوج مشهور فى روسيا القديمة، وكلمات منفصلة مثل "دم.. كثير من الضيق.. يكفى.." وتدريجياً أصبحت هذه المقدمة من السيرة الذاتية متماسكة ومترابطة، وبعد تعليق مختصر عن نهاية هادئة نتيجة لمرض عضال، وخاتمة غريبة لحياة حقيرة ووحيدة، ذكر ما يلى بوضوح:

"الآن - هذا تحذير . إحذروا شخصاً بعينه.

إنه يقتفى أثرى. يتجسس، ينصب الشراك، يخون. وهو مسئول عن موت كثيرين. مجموعة من المهاجرين الشباب فى طريقها لعبور الحدود لتقوم بالعمل فى أحد الإنفاق فى روسيا، فتنصب الشراك وتهلك المجموعة. إنه

يتجسس ينصب الشراك ويخون.

خذوا حذركم. إحذروا رجلاً ضئيل الحجم يرتدى السواد، لا تنخدعوا بمظهره المتواضع. إننى أنطق بالحق.."

سأل "فينشتوك": من يكون هذا الرجل؟

وتأخر مجئ الإجابة.

"من فضلك" آزيف" أخبرنا من يكون هذا الرجل؟

وتحت أصابع "فينشتوك"، ثانية تحرك "صحن الفنجان" فوق الصحيفة متتبعا الحروف الهجائية، تاركا خطاً هنا وهناك أثناء توجيهه للعلامة - على حافته ناحية هذا الحرف أو ذاك.

وقام بستة من هذه التوقفات قبل أن يتجمد مثل سلحفاة مصدومة.

كتب "فينشتوك" وقرأ بصوت مرتفع إسماً مألوفاً.

قال : هل تسمع؟ موجهاً الكلام إلى شخص ما فى الركن الأكثر ظلمة من الحجرة.

قال الشخص: "عمل جميل بالطبع لكننى لست فى حاجة لأن أخبرك أننى لم أصدق هذا الكلام لثانية واحدة. أمل ألا يغضبك هذا الكلام. ولماذا يغضبك؟ فكثيراً ما يحدث فى الجلسات أن تنطق الأرواح بكلام لا معنى له".

وتظاهر "فينشتوك" بالضحك لكلامه هذا.

وأصبح الوضع مثيراً، فباستطاعتى أن أحصى ثلاث نسخ من "سمروف"، بينما الأصلى لا يزال مجهولاً.

ويوجد هذا الموقف فى التصنيف العلمى.

فمنذ فترة طويلة مضت وصف "لينويس" أصنافاً شائعة من الفراشات، مضيفاً هذا التعليق المقتضب: "وذلك فى الصنف المعروف بـ "براتيس ويستمانيى".

يمر الزمن، وفى إطار السعى الحثيث لتحقيق الدقة، أطلق متخصصون جدد اسماً على كل الأنواع الألبية لهذه الأصناف الشائعة، وهكذا - سريعاً لم تتبق بقعة فى أوروبا يجد فيها المرء نوعاً بلا اسم، وينطبق ذلك حتى على الأصناف المحلية.

فأين النوع، النموذج، الأصل؟

عندئذ، وفى النهاية، ناقش عالم حشرات مهم فى بحث تفصيلى المركب الكلى للأنواع المسماة، ووافق عليه بوصفه الممثل لمركب مطابق يرجع إلى مائتى سنة مضت.

وهكذا خبت أهمية الصنف الاسكندنافى الذى جمعه "لينويس"، ووضع هذا التعيين للهوية كل شىء فى موضعه الصحيح.

وبنفس الطريقة السابقة صممت على التعمق للوصول إلى "سمروف" الحقيقى، منتبهاً من البداية إلى أن صورته قد تأثرت بالأحوال المناخية المنتشرة فى مختلف الأرواح، وهكذا - بداخل الروح الباردة ينتحل مظهراً واحداً، بينما فى روح متوهجة تصبح له تلونات مختلفة.

كنت قد بدأت أستمتع بهذه اللعبة. شخصياً، نظرت

إلى "سمروف" دون أية عاطفة. فثمة تحيز فى محاباته وجد منذ البداية مما سمح بقدر بسيط من الإثارة . كذلك خبرت إثارة جديدة بالنسبة لى. تماماً مثل العالم الذى لا يهتم بما إذا كان لون جناح - ما - جميلاً أو لا، أو هل التحديدات الموجودة عليه رقيقة أم بشعة المنظر (فقط يهتم بالخواص التصنيفية)، لقد اهتممت بـ "سمروف" دون أية اختلاجة جمالية، وبدلاً عن ذلك وجدت اختلاجة متحمسة نحو تصنيف أقنعة "سمروف" التى كشفها عن غير قصد.لم تكن المهمة يسيرة على الإطلاق . فعلى سبيل المثال ، عرفت تمام المعرفة أن " ماريانا " – البايخة – رأت "سمروف" ضابطاً متوحشاً و ألمعياً ينتمي للجيش الأبيض، " من هذا النوع الذي يتجول معلقاً الناس من المشانق يميناً ويساراً " كما أخبرتني " إيفجنيا " في سرية تامة أثناء حديث خاص بيننا . و لتحديد هوية هذه الصورة بدقة ، كان عليّ أن أصبح على دراية بحكاية " ماريانا " كاملة ، بكل الخواطر الثانوية التي استيقظت داخلها عندما نظرت إلى (سمروف) ؛ الذكريات الأخرى - الانطباعات الأخرى عن المخاطرة - وكل هذه الآثار التنويرية التى تتفاوت من روح إلى روح.

كانت محادثتى مع "إيفجنيا" مباشرة بعد رحيل "ماريانا نيكليفنا" ، وقد قيل إنها ذاهبة إلى وارسو، ورغم ذلك فثمة قرائن غامضة تشير إلى رحلة تقصد أبعد من ذلك شرقاً، وربما عودة إلى القطيع. وهكذا حملت "ماريانا"

معها فكـرة خاصـة عن "سـمروف" سـتحفظها حتـى نهايـة أيامها، مالم يعد لها شخص ما نشاطها.

سألت "إيفجنيا" وماذا عنك؟ مـا الفكـرة التـى قمـت بتكوينها؟ أجابت: أوه، هذا أصعبٍ من أن يقال بأكمله فـى مرة واحدة ، وزينت ابتسامة كـلاً مـن شـبهها بكلـبٍ "بـول دوج" ظريف والظل المخملى لعينيها.

... "من فضلك"– قلت بإصرار.

قالت – بسرعة – : فى البداية هناك خجله . نعـم، نعم، قدر كبير من الخجل. كان لى ابن عـم، شـاب مهـذب ولطيف جداً، لكـن حينمـا يضطـر إلـى مواجهـة حشـد مـن الغرباء فى قاعة استقبال حديثة، يلجأ إلـى التصفير ليمنـح نفسه فرصة ليتنفس، وفى نفس الوقت هو لا مبال وخشن.

... نعم – أكملى؟

... دعنى أتذكر، ماذا هنالك أيضاً... الحساسية، بل سأقول الحساسية الشديدة، وبـالطبع الشـباب والافتقـار إلـى الخبرة مع الناس . لم يكن هناك شيء آخر يمكن الحصـول عليـه منهـا ولـو عـن طريـق تملقهـا. وجـاء الطيـف الـذى ابتدعته شاحباً ويفتقر إلى الجاذبية. ورغم ذلك كانت نسخة "سمروف" الخاصة بـ "فانيا" هى التى حظيت بانتباهى مـن بين النسخ كلها وفكرت فيها باستمرار. أتذكـر كيـف، ذات مساء، كادت الفرصة أن تواتينى بإجابة. فلقد صعدت من حجرتى الكئيبة إلى شقتهم فـى الطـابق السـادس. ولـم أجـد سوى الأختين بصحبـة (خروشـوف) و(موخيـن) وهـم فـى

طريقهم إلى المسرح.

لم يكن لدى شيء أفضل من مصاحبتهم إلى موقف التاكسى. وفجأة لاحظت أننى نسيت مفتاح الباب الرئيسى للمنزل. قالت "إيفجنيا": أوه - لا تقلق، لدينا نسختان. ومن حسن حظك أننا نعيش فى نفس المنزل. خذ نسخة، ويمكنك إعادتها غداً. تصبح على خير.

مشيت باتجاه المنزل، وفى الطرق خطرت لى فكرة رائعة. تخيلت شريراً أنيقاً من أشرار الأفلام يقرأ مستنداً وجده على مكتب شخص آخر - صحيح، كانت خطتى نظرية وناقصة . لقد أحضر "سمروف" ، ذات مرة، لـ "فانيا" زهرة "أوركيد" صفراء داكنة الترقيط، تشبه إلى حد ما ضفدعة. والآن أستطيع أن أتحقق مما إذا كانت "فانيا" قد احتفظت ببقايا الزهرة الأثيرة فى درج سرى. وفى مرة أخرى أحضر لها مجلداً صغيراً لـ "جميلوف"، شاعر المقاومة، وقد يكون من الأفضل أثناء تفقدى أن أتحقق مما إذا كانت الصفحات قد فصلت عن بعضها، وهل يوجد الكتاب على منضدتها المسائية.

كذلك كانت هناك صورة ، التقطت بواسطة "فلاش" من الماغنسيوم، وفيها يتبدى "سمروف" بجلاء - نصف بروفيل، شاحب جداً، حاجبه مرفوع - وإلى جواره تقف "فانيا" بينما "موخين" متوار فى الخلفية.

وبشكل عام يمكن القول بأن هناك كثيراً من الأشياء التى يمكن اكتشافها.

قررت إذا ما صادفت الخادمة (وهى فتاة جميلة جداً - بالمناسبة) سأفسر لها الموقف بأنه كان علىَّ أن أجئ لإعادة المفاتيح، وبحرص فتحت باب شقة "خروشوف" وتسللت على أطراف أصابعى إلى قاعة الاستقبال.

من المسلى أن تدخل غرفة أخرى بغتة. تجمد الأثاث من الدهشة عندما أضأت النور - كان شخص ما قد ترك رسالة على المنضدة، وكان المظروف ملقى مثل أم عجوز لا نفع منها، وبدت الورقة الصغيرة جالسة مثل رضيع قوى ونشيط . لكن اللهفة، رعشة الإثارة والحركة المتهورة ليدى، جميعها ثبت أنها غير ضرورية. كان الخطاب من شخص غير معروف لى، من عم اسمه "باشا". ولم يحتو ولو على إشارة إلى "سمروف" - وإذا ما كانت مشفرة، فأنا لاعلم لى بمفتاح الشفرة.. سريعاً عبرت إلى حجرة الطعام.

كان هناك زبيب ومكسرات فى طبق، وإلى جواره كتاب مفتوح وعلى وضع القراءة ، رواية فرنسية بعنوان (مغامرات أريان) للكاتب (جون فيل روسيه).

وفي حجرة نوم "فانيا" حيث انتقلت بعد ذلك، كان الجو بارداً بسبب الشباك المفتوح. ووجدت غرابة فى النظر إلى غطاء السرير المزركش وإلى منضدة أدوات الزينة التى تشبه المذبح، حيث يلمع الزجاج المقطوع فى

غموض.

لم يكن هناك أثر لزهرة "الأوركيد"، لكن عوضاً عنها كانت هناك صورة مسندة إلى "الأباجورة" المجاورة للسرير. وكان "رومان بوجدانوفيتش" هو الذى التقطها. وتظهر فيها "فانيا" جالسة بساقيها الوضاءتين متقاطعتين ، وخلفها يظهر وجه "موخين" الهزيل، وإلى يسار "فانيا" يستطيع الواحد أن يتبين "كوعاً أسود" - هو ما تبقى بعد قطع الجزء الذى يظهر فيه "سمروف".

.. دليل تالف !

على سطح الوسادة ذات الغطاء المزركش، الخاصة بـ "فانيا" ، تبدت فجأة فجوة نجمية الشكل، الأثر العنيف لقبضتى ، وفى اللحظة التالية كنت فى حجرة الطعام ألتهم المكسرات وأرتعش.

هنا تذكرت المكتبة الصغيرة بقاعة الاستقبال، فأسرعت إليها فى هدوء. لكن فى هذه اللحظة تناهى الصرير المعدنى لمفتاحٍ من ناحية الباب الأمامى . بدأت أتراجع بسرعة، مطفئاً النور أينما ذهبت، حتى وجدت نفسى فى صالون صغير مكسو بالساتان إلى جوار غرفة الطعام. تخبطت فى الظلام متحسساً ما يحيط بى حتى صادفت أريكة فاستلقيت كما لو كنت سأغفو عليها.

فى نفس الوقت كانت الأصوات التى جاءت من الصالة للأختين ولـ "خروشوف" . كانوا يودعون "موخين". ألن يدخل لدقيقة؟ لا - كان الوقت متأخراً ، ولن

يدخل. متأخر؟ هل انتقالى الطيفى من حجرة إلى أخرى استغرق ثلاث ساعات؟ فبينما فى مسرح ما استهلك شخص ما هذا الوقت لأداء مسرحية سخيفة شاهدتها عدة مرات، وهنا لم يقم رجل ما بشيء سوى الانتقال بين ثلاث حجرات. ثلاث حجرات: ثلاثة فصول . هل استغرقت ساعة كاملة فى تأمل خطاب بقاعة الاستقبال، وساعة أخرى لتأمل كتاب فى حجرة الطعام، وساعة ثالثة لتأمل صورة فى البرودة الغريبة لحجرة النوم؟

... لا يوجد شيء مشترك بين زمنى و زمنهم.

وفى الغالب توجه "خروشوف" مباشرة إلى حجرة النوم، بينما توجهت الأختان إلى حجرة الطعام.

لم يغلق بأحكام الباب المؤدى إلى مخبئى المعتم مثل الفولاذ الدمشقى واعتقدت أنه قد حان الوقت لأعرف ما أردت عن "سمروف".

قالت "فانيا": "... لكننى منهكة إلى حد ما"، وأصدرت صوتاً نقل لى انطباعاً بأنها تتثاءب، وأكملت "أعطنى بعضا من "جعة الجذور"، لا أريد الشاى".

وكان هناك صوت لاحتكاك طفيف نتج عن تحريك مقعد باتجاه المنضدة . ساد صمت طويل بعده جاء صوت "إيفجنيا" ، كان قريباً جداً لدرجة أننى ألقيت نظرة حذرة باتجاه الشق الذى يمر منه الضوء، كانت تقول "الشيء الرئيسي هو أن تدعيه يحكي لهم بطريقته وبتعبيراته . هذا هو الشئ الرئيسي . فرغم كل شيء هو

يتحدث الإنجليزية بينما الألمان لا يتحدثونها . لست متأكدة أننى أفضل كعكة الفواكه هذه".

الصمت مجدداً . وبعده قالت "فانيا" حسناً، سأنصحه بأن يفعل ذلك، رنّ شىء ما ثم سقط - ملعقة ربما - وعندئذ سادت فترة أخرى. طويلة . من الصمت.

قالت "فانيا" - ضاحكة - أنظرى لهذا.

تساءلت أختها من أى شىء صنع، من الخشب؟

قلت "فانيا" وهى تضحك : لا أعرف.

بعد برهة ، تثاءبت "إيفجنيا" وكان تثاؤبها يدل على شعور بالراحة والدفء أكثر من "فانيا" ، وقالت: "الساعة توقفت.." وكان ذلك كل شىء. جلستا لبعض الوقت، وأصدرتا صلصلة بشىء أو أخر : كانت كسارة البندق تكسر ثمرة ثم تعود إلى مكانها فوق مفرش المنضدة بواسطة إبهام يد ما، لكن لم يكن هناك المزيد من الكلام، وحينئذ تحركت المقاعد ثانية "أوه - تستطيع تركها هنا"، قالت "ايفجنيا" ذلك بفتور وتباطؤ، وهكذا تلاشى فجأة الشق السحرى الذى توقعت أن أعرف الكثير من خلاله. وفى مكان ما صفق باب ، وجاء صوت "فانيا" من بعيد ، كانت تقول شيئاً ما، بدا غامضاً وغير مفهوم، وبعدئذ ساد الصمت والظلام من جديد.

استلقيت على الأريكة لفترة أطول، وفجأة انتبهت أنه الفجر. حينئذ تسللت بحذر إلى السلم وعدت إلى حجرتى.

* * *

تخيلت "فانيا" فى حالة أكثر حيوية، مخرجة طرف لسانها إلى أحد جانبى فمها وهى تقطع بمقصها الصغير الجزء الذى يظهر فيه "سمروف" غير المرغوب فيه.

لكن قد لا يكون الأمر هكذا. فأحياناً يتم قطع شىء ما لأجل وضعه فى إطار منفصل.

ولتأكيد هذا التخمين ، بعد أيام معدودة وصل العم "باشا" على غير المتوقع تماماً، من ميونخ. كان فى طريقه إلى لندن ليزور أخاه ومكث فى برلين لمدة يومين - فقط.

لم ير المتهتك العجوز أبناء أخيه منذ فترة طويلة جداً، وكان ميالاً إلى استدعاء كيف اعتاد أن يضع "فانيا" البكاءة على ركبتيه ويضربها على مؤخرتها.

للوهلة الأولى بدا هذا العم "باشا" ثلاثة أضعاف عمرها ، لكن بمجرد أن تنظر إليه عن قرب أكثر سيتضح تقدمه فى العمر تحت عينيك المجردتين.

فى الحقيقة، لم يكن فى الخمسين بل فى الثمانين ، ولا يستطيع المرء تخيل أى شىء أكثر إثارة للفزع من هذا الخليط من الشباب والتداعى. جثة مرحة فى بدلة زرقاء، على كتفيه قشر الشعر، حليق الذقن، بحاجبين كثيفين وخصلات شعر عجيبة تبرز من فتحتى أنفه. كان العم "باشا" متحركاً، مثيراً للضوضاء وفضوليا . وفى أول ظهور له استجوب "إيفجنيا" فى همس بشأن كل ضيف، وبوضوح شديد كان يشير إلى هذا الشخص ثم ذاك،

مستخدماً سبابته التى تحمل فى نهايتها ظفراً أصفر اللـون وطويلاً بشكل وحشي.

فى اليوم التالى حدثت واحدة من المصـادفات التـى يتورط فيها القادمون الجدد الذيـن - لسـبب مـا - يتوافـدون كثيراً، كمـا لـو كـان هنـاك قدر هزلـى عديـم الطعـم علـى خـلاف (أبـوم)، الخـاص بــ "فينشـتوك"، الـذى - فـى يـوم وصولك من رحلة ما.. تجد أنه ذات الرجل الذى تصـادف و جلس مواجهاً لك فى عربة القطار.

لأيام متعددة انتابني شعور غريب بعدم راحة فى موضـع اختراق الرصاصـة لصـدرى، شـعور مشـابه لرسـم تخطيطـى فـى غرفـة مظلمـة. ذهبـت إلـى زيـارة طبيـب روسى ، وهناك ، بالطبع كان العم "باشا" جالساً فى غرفـة الانتظار. وبينما كنت أتجادل مع نفسى هل أبـادره بـالكلام أم لا (مفترضاً أنه منذ المسـاء المـاضى كـان لديـه الوقـت لينسـى كـلاً مـن وجهـى واسـمى)، هـذا الثرثـار العجـوز، الكاره لإخفاء مجرد حبة من مخزون غـلال خبرتـه، كـان قد ابتدأ حديثاً مع سيدة مسنة لا تعرفه، لكنها كانت بلا شك مـ ـمة بالغرباء أصحاب القلوب المنفتحة.

فى البداية لم أتابع حديثهما، لكن فجأة هزنـى اسـم "سـمروف" ومـا عرفتـه مـن كلمـات العـم "باشـا" الطنانـة والمبتذلة . كان مهماً جداً لدرجة أنه بمجـرد اختفائـه وراء بـاب حجـرة الطبيـب، غـادرت مسـرعاً دون الانتظـار لدورى، وفعلت ذلك بتلقائية شديدة، كما لو كنـت قد جئـت

لعيادة الطبيب فقط لأسمع العم "باشا": (الآن انتهى العرض وفى إمكانى أن أرحل)...

"تخيلى" ، هكذا قال العم "باشا": البنت الصغيرة تفتحت وأصبحت زهرة أصيلة . أنا خبير فى الزهور واستنتجت على الفور أن هناك شاباً فى الصورة . وعندئذ قالت لى أختها (أنه سر كبير يا عمى، فلا تخبر به أحداً، إنها على علاقة بهذا الـ "سمروف") ، ليس أسوأ من غيره. لكن الموقف نبهنى إلى التفكير فى زمن اعتدت فيه أن أضرب العاشقة الصغيرة على مؤخرتها الصغيرة العارية وهاهى الآن عروس - ببساطة إنها تعبده. حسناً هذا هو الحال أيتها السيدة الطيبة، كان لنا اندفاعنا، والآن لندع الآخرين يندفعون...

هكذا - لقد وقع الأمر، وحظى "سمروف" بمن يحبه.

بلا شك ميزت "فانيا" ، قصيرة النظر لكنها حساسة، شيئاً غير معتاد فى "سمروف" ، فهمت شيئاً عنه، ولم يخدعها هدوءه. وفى ذات المساء، فى منزل عائلة "خروشوف"، كان "سمروف" هادئاً ومتواضعاً بشكل خاص.

والآن، على كل، عندما يعرف المرء أية سعادة قد صدمته - نعم صدمته (فهناك سعادة شديدة القوة، بهبوبها وهدير إعصارها ، تشبه الجائحة).

والآن من الممكن تمييز اختلاجة ما فى هدوئه ،

وحمرة البهجة تبدو خلال شحوبه الغامض.

يالـ الرب الرحيم، كيف يحملق فى "فانيا"..! سوف تخفض أهدابها وترتجف فتحتا أنفها، وقد تعض على شفتيها خفيفاً، لتحجب كل مشاعرها المفتونة. وفى تلك الليلة بدا أنه لابد من وضع نهاية لشىء ما.

لم يكن "موخين" المسكين موجوداً هناك، فلقد ذهب إلى لندن منذ عدة أيام – كذلك كان "خروشوف" غائباً، وعلى سبيل التعويض، كان "رومان بوجدانوفيتش".. "، الذى كان يجمع مادة فى المفكرة التى كان يرسلها ، أسبوعياً ، مع خادمته العجوز الحريصة إلى صديق له فى تالين – أكثر إزعاجاً من أى وقت مضى . جلست الأختان على الأريكة كما يحدث دائماً، ووقف "سمروف" مسنداً كوعه إلى البيانو، محدقاً بوله إلى انسياب شعر "فانيا" على وجنتيها داكنتى الحمرة.

لمرات متعددة قفزت "إيفجنيا" ودفعت برأسها خارج النافذة، فلقد وعد العم "باشا" بالمجىء ليودعهم، وأرادت أن تتأكد وتكون جاهزة لتفتح باب المصعد له.

قالت ضاحكة : أهيم به . يالـه من شخصية . راهن أنه لن يسمح لنا بمصاحبته إلى المحطة . بأدب سأل، "رومان بوجدانوفيتش" "سمروف" هل تعزف؟ وألقى بنظرة ذات مغزى على البيانو.

أجاب "سمروف" بهدوء: اعتدت العزف فى وقت ما. ورفع غطاء "البيانو" وحدق حالما فى المفاتيح

المكشوفة للوحة المفاتيح ، ثم أعاد الغطاء ثانية.

ألمح "رومان بوجدانوفيتش" بحميمية: أحب الموسيقى، فهى تعيدنى إلى أيام الدراسة.

قال "سمروف" بنبرة أعلى: الموسيقى، الجيدة على الأقل تعبر عما يستعصى على الكلمات، وهنا يكمن معنى وغموض الموسيقى.

صرخت "إيفجنيا": هاهو - وغادرت الحجرة.

"وأنت، فارفارا؟ سألها "رومان بوجد أنوفيتش" بصوته الخشن الغليظ "أنت يا ذات أصابع أرق من حلم.. إيه؟ تعال.. إعزفى أى شيء.. القليل من الـ "ريتورنيللو".

هزت "فانيا" رأسها وبدت كما لو كانت ستغضب، لكنها بدلاً من ذلك قهقهت وخفضت وجهها.

وبلا شك، ما آثار مرحها كان دعوة هذا المغفل لها لتجلس إلى البيانو بينما روحها تهتز وتنساب مع لحنها الخاص. عند هذه اللحظة بإمكان المرء أن يلاحظ فى وجه "سمروف" رغبة شديدة العنف تتمنى أن يتعلق إلى الأبد المصعد الذى يحمل "إيفجنيا" والعم "باشا"، وأن يسقط "رومان بوجدانوفيتش" مباشرة بين فكى الأسد الفارسى الأزرق المصور على السجادة، والأهم من ذلك أن اختفى أنا: العين الباردة المصرة التى لا تكل.

بعد برهة. كان العم "باشا" موجوداً فى الصالة يلهث ويتنفس وصعوبة والآن دخل، بعد أن توقف قليلاً عند العتبة ، مبتسماً ببله وداعكاً يديه إحداهما بالأخرى ،

و قال : " إيفجنيا" .. أخشى أنني لا أعرف أحداً من الموجودين هنا، تعال لتتولى مهمة تعريفنا ببعض.

قالت "إيفجنيا" يا إلهى! إنها ابنة أختك.

قال العم "باشا": الأمر كذلك إذن، وأضاف شيئاً شائناً عن الوجنات والخوخ.

"ربما لا يستطيع التعرف على الآخرين كذلك" "تنهدت "ايفجنيا" وهى تقول ذلك، وبدأت تقدمنا بصوت مرتفع.

..."سمروف" ! قالها العم "باشا" فى تعجب، وارتفع حاجباه. "أوه - "سمروف" وأنا أصدقاء قدامى. رجل سعيد، سعيد".

وأكمل بطريقته المزعجة ، مربتاً على ذراعى "سمروف" وكتفيه . "وتظن أننا لا نعرف.. نحن نعرف كل شيء عن هذا الموضوع.. سأقول شيئاً واحداً - اعتن بها! إنها هبة من السماء" والتفت إلى "فانيا" وأضاف: "أتمنى لكما السعادة يا طفلي" لكن "فانيا" ضاغطة بمنديل مكرمش على فمها، جرت خارجة من الحجرة. أسرعت "إيفجنيا" خلفها وقد صدر عنها صوت غريب. ولم يلحظ العم "باشا" أن ثرثرته غير المسئولة، غير المحتملة بالنسبة لمخلوق حساس، قد دفعت "فانيا" إلى البكاء. جحظت العيون ، ونظر "رومان بوجدانوفيتش" بفضول بالغ إلى "سمروف" الذي ، بغض النظر عن مشاعره ، حافظ على هدوء لا تشوبه شائبة . قال العم "باشا" : الحب شئ عظيم ، وابتسم

"سمروف" بأدب ، وهذه البنت ثروة ، وأنت مهندس شاب، أليس كذلك ؟ ولمهنتك مستقبل طيب . ودون الدخول في أية تفاصيل ، قال "سمروف" أنه على ما يرام. فجأة- خبط " رومان بوجدانوفيتش " ركبته واحتقن وجهه.

قال العم "باشا" : سأثنى عليك فى لندن. فلدى اتصالات متعددة . وفجأة قال: لقد تأخرت ، تأخرت. حان الوقت لأرحل. وحدق الرفيق العجوز المذهل فى ساعته، وصافحنا بكلتا يديه. وتحت تأثير نعيم الحب وسعادته، فاجأنا "سمروف" واحتضنه.

"كيف استقبلت هذا؟... هناك شخص مهووس بك" قالها "رومان بوجد انوفيتش" بعد إغلاق الباب خلف العم "باشا" .عادت "ايفجنيا" إلى قاعة الاستقبال وسألت باندهاش: أين هو؟ هناك شيء سحرى فى اختفائه . وأسرعت إلى "سمروف" وقالت: من فضلك أعذر عمى. كنت مغفلة كفاية لأحكى له عن "فانيا" و"موخين". يبدو أنه قد خلط بين الأسماء. فى البداية لم أدرك ما ألم به من خبل.

تدخل "رومان بوجدانوفيتش" فارداً يديه وقال: "وأنا أنصت ظننت أننى فى سبيلى للجنون.

أكملت "ايفجنيا": تعال ، تعال "سمروف". ماذا بك؟ لا يجب أن تحزن هكذا. فرغم كل شيء ليس من قصد لإهانتك.

قال "سمروف" بصوت أجش: أنا بخير، فقط لم

أكن أعرف. قالت "إيفجنيا" ما الـذى تقصـده بـأنك لـم تكـن تعرف؟ الجميع يعرفون... فهذا الأمر مسـتمر منذ سنوات نعـم بـالطبع فهمـا يهيمـان ببعضـهمـا، منـذ سـنتين تقريبــاً. إسمع، سأحكى لك حكاية مسلية عن العم "باشا": ذات مرة، عندما كان أصغر نسبياً، لا - لا تستدرِ عنى القصة مسلية جداً، ذات يوم عندما كان أصغر نسبياً اعتاد أن يمشى فـى شارع "نيفسكى".

* * *

بعد فترة قصـيرة توقفـت عـن متابعـة "سـمروف"، وعندئـذ شـعرت أننـى أصبحـت أثقـل، واستسـلمت ثانيـة لإزعاج الجاذبية، واستعدت مجدداً لحمـى السـابق كمـا لـو كانت كل هذه الحياة حولى لم تكن لعبة مـن خيـالي، لكنهـا كانت واقعية ، وكنت جزءاً منهـا ، جسـداً وروحـاً. إذا لـم تُحَب، لكن دون أن تعرف بدقة أن منافسك اللدود يُحَـب أم لا، وإذا كان المنافسون عدة ولا تعـرف أيهمـا أوفـر حظـاً منك، وإذا عشت علـى ذلـك الجهـل المفعـم بـالأمل والـذى يعينك على حل الفزورة وإلا ستعانى مـن إثـارة لا تطـاق، عندئذ يصبـح كـل شـىء حسـناً، وتسـتطيع الاسـتمرار فـى الحيـاة. لكـن للأسـف عندمـا يتـم الإعـلان عـن الاسـم فـى النهاية، تكتشف أنه ليس اسمك!

لكنها فاتنة، لدرجة تجعل العيـون تمتلـئ بـالدموع، وبمجرد التفكير بها تتدفق بأعماقى بشاعة السهد والأنين.

وجهها النـاعم، عيناهـا المصابتـان بقصـر النظـر،

شفتاها الحساستان غير المطليتين، واللتان تتشققان وتنتفخان قليلاً من البرودة، ويتلاشى لونهما عند الحافتين، ذائباً فى لون قرمزى ملتهب يبدو فى أمس الحاجة إلى لمسة من جناح فراشة.

فساتينها القصيرة ذات الألوان الزاهية، ركبتاها الكبيرتان اللتان تتضغطان بقوة وإحكام لا يطاق عندما تشاركنا لعب الورق، "سكات"، خافضة رأسها المجلل بشعر أسود ناعم فوق ورق اللعب، ويداها الرطبتان الخشنتان قليلاً مثل أيدى المراهقات، التى يتوق المرء إلى لمسها وتقبيلها، نعم كل شىء فيها موجع وعضال بطريقة ما ، فقط فى أحلامي المبللة بالدموع استطعت فى النهاية احتضانها وأن أشعر برقبتها أسفل شفتى وبالفجوة القريبة من عظمة الترقوة.

لكنها دائماً ما تنفصل وتبتعد ، لأستيقظ ومازلت أرتجف. فماذا سيهمنى إذا كانت غبية أم ذكية، أو كيف كانت طفولتها أو أية كتب قرأت، أو ما فكرتها عن الكون؟

فى الواقع أنا لا أعرف أى شىء عنها، أصابتنى نيران الحب بالعماء، تلك التى حلت محل كل شىء، والتى - على النقيض من روح الإنسان (وهى غالباً سهلة المنال ويمكن السيطرة عليها)، لا يمكن بأى حال الاستيلاء عليها، تماماً مثلما لا يستطيع المرء أن يضم إلى مقتنياته ألوان سحب الغروب فوق المنازل السوداء، وعبق زهرة يستنشقه بلا توقف، بفتحتى أنف متوترتين، لحد الإصابة

بالتسمم ، لكن دون الاستحواذ على كل محتوى "التويج" من هذا العبق.

ذات مرة، فى الكريسماس، قبل ذهابهم إلى حفل راقص بدونى، لمحت - فى جزء المرآة عبر فرجة فى الباب - أختها وهى تضع البودرة على كتفى "فانيا" العاريتين.

وفى مناسبة أخرى لمحت "سوتيان" رقيقاً فى الحمام. وبالنسبة لى كانت هذه أحداث مرهقة، لها تأثير لذيذ لكنه مرعب على أحلامى، رغم أننى خلالها لم أتجاوز أبداً إلى الأمل فى قبلة (ولا أعرف لماذا أبكى دائماً عندما نتلاقى فى أحلامى). ما أحتاجه من "فانيا" لا أستطيع أبداً أن أظنه للاستخدام الدائم أو للامتلاك بأى حال من الأحوال، مثلما لا يستطيع المرء امتلاك زرقة السحابة أو عبق الزهرة. فقط عندما أدركت فى النهاية أن رغبتى مصرة على أن تظل نهمة، وأن "فانيا" مجرد ابتداع يخصنى، بدأت أشعر بالهدوء. وأصبح أكثر تعوداً على إثارتى الخاصة، ومنها استخلصت كل الرحيق الذى يمكن لرجل أن يستخلصه من الحب.

* * *

تدريجياً عاد انتباهى إلى "سمروف". وفجأة إتضح أنه بدلاً من اهتمامه بـ "فانيا" وضع "سمروف" عينيه، بمكر، على خادمة "خروشوف"، فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها، وتكمن جاذبيتها الخاصة فى النظرة الناعسة

لعينيها. أما هى نفسها يمكن اعتبارها أى شىء غير أن تكون ناعسة.

ومن المسلى أن تفكر أى من الوسائل الفاسدة فى لعبة الحب ستفكر بها هذه الفتاة متواضعة المظهر - وتدعى جرتشن أو هيلدا، لا أتذكر أيهما اسمها - عندما يغلق باب الحجرة ليضىء مصباح عار يتدلى من سلك طويل صورة خطيبها (رفيق قوى يرتدى قبعة المبتدئين). وتفاحة من منضدة سادتها. ومثل هذه الأشياء رواها "سمروف" بكل تفاصيلها، وبطريقة لا تخلو من تفاخر – لـ "فينشتوك"، الذى يمقت القصص غير المهذبة ويطلق عند سماع أى شىء مثير للشهوة لفظاً واضحا وبليغاً.

ولهذا السبب يتوق الناس إلى إخباره بأشياء لها هذه الطبيعة.

كان "سمروف" يصل إلى حجرتها عبر السلالم الخفية، ويقضى معها وقتاً طويلاً . وبدا أن "إيفجينيا" قد لاحظت شيئاً ما - خطوات سريعة عند نهاية الممشى ، أو ضحكة مكتومة خلف الباب - لأنها ألمحت ببعض الإثارة إلى أن هيلدا (أوجرتشن) لها علاقة بأحد رجال الإطفاء.

وخلال هذه المفاجأة العاطفية، تنحنح "سمروف" عدة مرات لتنظيف حلقه. أما الخادمة فبعينيها الساحرتين المخفوضتين لأسفل مرت عبر حجرة الطعام، وببطء وحرص وضعت طبق فاكهة ونهديها على منضدة جانبية،

ثم توقفت، وهى على نفس الحالة الناعسة ، لتعيد خصلة شعر صفراء وقصيرة إلى ما وراء أذنها - ثم عاودت السير - مثل المسرنمين، إلى المطبخ ، وأثناء ذلك كان "سمروف" يفرك يديه كما لو كان على وشك الكلام، أو يبتسم فى المواضع الخاطئة خلال الحديث الدائر.

وبدا على وجه "فينشتوك" الضيق وبصق فى اشمئزاز عندما أسهب "سمروف" مبتهجاً، فى متابعة الخادمة أثناء تأدية عملها، منذ وقت قصير مضى، عندما كانت تدق بنعومة الأرض العارية بقدمين عاريتين، فلقد كان يتقافز مع هذه الخادمة ذات الوركين الطريين مثل القشدة، فى غرفتها الضيقة الصغيرة على صوت موسيقى تنساب من "فونوجراف" موجود فى الجزء الخاص بسادة المنزل، وكان السيد "موخين" قد أحضر من لندن بعض التسجيلات الجميلة لموسيقى هاواى الراقصة التى لا تخلو من أنين عذب.

"أنت مغامر، دون جوان ، كازانوفا"- هكذا كان "فينتشوك" سيقول لنفسه، لكنه بلا تردد دعا "سمروف" بالعميل المزدوج أو ذى الوجوه الثلاثة ، وتوقع من المنضدة الصغيرة، بداخلها شبح "أزف" العصبى، أن تقدم له كشوفات جديدة مهمة.

وقد كانت هذه الصورة لـ "سمروف" مثيرة بالنسبة لى ، لكنها الآن أقل إثارة، لأنها محكوم عليها بالتلاشى التدريجى نتيجة لغياب الدليل المدعم لوجودها. بالطبع دام

الغموض المحيط بشخصية "سمروف". ويستطيع الواحد أن يتخيل "فينتشوك" بعد سنوات عديدة قادمة وفي مدينة أخرى، يشير بشكل عابر إلى رجل غريب عمل ذات مرة كمندوب مبيعات لديه، والآن لا يعلم سوى الرب أين هو. وسوف يضيف في تأمل: "نعم ، إنه شخصية غريبة جداً. فهو رجل علاقاته غير مكتملة، رجل يحمل بداخله سراً. وفي استطاعته إلحاق الأذى بفتاة... فمن أرسله، ومن كان يختبر، من الصعب أن أفصح. رغم أنني عرفت من مصدر موثوق... لكنني لا أريد التفوه بشيء."

* * *

أما الأكثر امتاعاً فهي فكرة "جرتشن" - أو هيلدا - عن "سمروف". فذات يوم من يناير اختفى زوج جديد من الجوارب الحريرية من دولاب "فانيا"، وحينما تذكر الآخرون العديد من المفقودات التافهة: سبعون "بفننج" فكة كانت على المنضدة، وقطعة من قطع لعبة الداما، وصندوق تجميل من الكريستال "هرب من الاتحاد السوفيتي"، حسب تورية "خروشوف" ، ومنديل حريري، ثمين القيمة لسبب ما "فأين على الأرض أستطيع أن أضعه؟".

بعد ذلك - جاء "سمروف" ذات يوم، مرتدياً رابطة عنق ذات لون أزرق فاتح وفي جمال الطاووس، عندئذ طرفت عين "خروشوف" وقال أنه كان يمتلك رابطة عنق مثل هذه تماما، وبدا "سمروف" محرجاً بشكل مبالغ فيه،

ولم يرتد مثل هذه الرابطة ثانية.

لكن بالطبع لم يطرأ ببال أحد أن هذه الأوزة المغفلة قد سرقت رابطة العنق (اعتادت أن تقول، بالمناسبة، رابطة العنق هى حلية الرجل)، وأعطتها بحكم العادة ، إلى صديقها فى هذا الوقت - حسبما أخبر "سمروف" بمرارة "فينشتوك". وتم اكتشاف أمرها عندما تصادف أن "إيفجنيا" دخلت حجرتها وهى غير موجودة بها، ووجدت فى "التسريحة" أشياء مألوفة بدت كما لو كانت بعثت بعد موت ، ونتيجة لذلك رحلت "جرتشن" - أو "هيلدا" - لتواجه مصيراً مجهولاً، وقد حاول "سمروف" أن يبحث عنها لكنه سرعان ما توقف . و في ظهيرة نفس اليوم قالت "إيفجنيا" أنها قد عرفت أشياء مثيرة من زوجة البواب ، منها أن صديق "هيلدا" لم يكن رجل مطافئ ، لم يكن رجل مطافئ أبداً، قالت ذلك ضاحكة، بل كان شاعراً أجنبياً، أليس ذلك مبهجاً ؟ هذا الشاعر الأجنبى مر بتجربة حب تراجيدية، وأملاك أسرته في حجم ألمانيا ، لكنه كان ممنوعاً من العودة للوطن، حكاية مبهجة.. أليس كذلك؟.

لكن للأسف لم تسأل زوجة البواب عن اسم هذا الرجل، أنا متأكدة أنه روسى، ولن أفاجأ إذا تبين أنه أحد الذين جاءوا لرؤيتنا.. على سبيل المثال، هذا الفتى الذى جاء العام الماضى، تعرفون من أعنى، الفتى ذى البشرة السمراء والجاذبية القاتلة، ماذا كان اسمه؟ قالت "فانيا": أعرف من تقصدين. ذلك البارون أو شيء من هذا القبيل.

أكملت "إيفجنيا" : أوه – إنها حكاية مبهجة جداً.

لقد قالت زوجة البواب أنه رجل كله روح، رجل روحانى... أهـ – من الممكن أن أموت من الضحك.

قال "رومان بوجدانوفيتش" بصوت رائع، سأدون كل ذلك، ليحظى صديقى فى "تالين" "بخطاب مسل للغاية".

قالت "فانيا": ألا تمل من ذلك أبداً؟ لقد حاولت مراراً الاحتفاظ بمذكرات يومية، لكننى دائماً كنت أتخلى عن هذه الفكرة. وعندما كنت أعيد قراءتها، كنت أخجل مما دونته.

قال "رومان بوجدانوفيتش": "أوه – لا . إذا داومت على القيام بها بإتقان وانتظام ستحظين بشعور طيب، شعور بالحفاظ على الذات، ويمكن القول بأنك تحافظين على حياتك بأكملها. وبعد سنوات عندما تعيدين قراءتها ربما تجدينها ليست خلواً من الجاذبية والتشويق على سبيل المثال، لقد دونت وصفاً لك سيحسدنى عليه أى كاتب محترف. جرة قلم هنا، وجرة قلم هناك، وهاهى صورة كاملة.

قالت "فانيا": "أوه من فضلك دعنى أراها.

قال "رومان بوجدانوفيتش" – مبتسماً: لا أستطيع .

قالت "فانيا": حسناً – إعرضها على "ايفجنيا".

قال "رومان بوجدانوفيتش" : لا أستطيع . أود أن أفعل ذلك ، لكنني لا أستطيع . فصديقي– من تالين – يخزن ما أدونه كل أسبوع بمجرد وصول هذه اليوميات

إليه ، وعن عمد لا أحتفظ بأية نسخ ، وهكذا لن يكون من إغراء للقيام بتغيرات لاحقة أو حذف أشياء .. إلى آخره .
وذات يوم ، عندما يصبح "رومان بوجدانوفيتش " عجوزاً جداً سيجلس إلى مكتبه ويعيد قراءة حياته. هذا من أكتب لأجله، لأجل عجوز بلحية "سانتا كلوز" الذى سأكونه فى المستقبل، وإذا ما وجدت أن حياتى كانت ثرية ومفيدة، سوف أترك مذكراتى كدرس للأجيال القادمة.

سألت "فانيا: وإذا كانت كلها هراء؟

أجاب "رومان بواجدانوفيتش" : ما يعتبر هراء لشخص ما، قد يكون له معنى لدى شخص آخر.

لفترة طويلة شغلنى وأربكنى التفكير فى هذه اليوميات المكتوبة على هيئة رسائل.

وتدريجياً أصبحت الرغبة في قراءة - على الأقل جزء منها - تعذيباً عنيفاً، واستحواذاً دائماً.

لم يكن لدى أي شك فى أن هذه المذكرات الموجزة قد احتوت وصفاً لـ "سمروف".

أعرف فى كثير من الأحيان ، أن التناول التافه للمحادثات، والتسكع فى طرقات المدينة، وأشجار التيوليب أو الببغاوات الخاصة بالجيران، وما تناوله المرء على الغداء، قد تغطى على - مثلاً - إعدام الملك.

أعرف أن مثل هذه الملاحظات التافهة غالباً ما تعيش مئات السنين، والآن هذا الشخص سيقرأها ببهجة لأجل عبق القديم ، اسم طبق، الرحابة المبهجة حيث

تتزاحم - الآن - البنايات الشاهقة.

وبالإضافة إلى هذا يحدث غالباً أن كاتب اليوميات، الذى أثناء حياته كان مجهولاً أو تعرض للسخرية من أشخاص تافهين، يظهر بعد مائتى سنة - بوصفه كاتباً مميزاً، عرف كيف يخلد بواسطة ريشة قلمه ذى الطراز القديم، والبراح البهيج، ورائحة عربة تجرها الجياد، والغرائب التى يعرفها.

وبمجرد التفكير فى أن صورة "سمروف" قد تكون فى أمان تام وتبقى طويلاً، أشعر بقشعريرة غامضة ، وأصبح مجنوناً بالرغبة ، وأشعر أننى يجب - مهما كلفنى ذلك - أن أقحم نفسي، شبحياً، بين "رومان بوجدانوفيتش" وصديقه فى "تالين". وبالطبع حذرتني التجربة من أن الصورة الخاصة لـ "سمروف" ، والتي ربما مقدر لها أن تحيا للأبد (وليبهج ذلك الأصوليين) ، قد تكون بمثابة صدمة بالنسبة لي .

لكن الإصرار على امتلاك هذا السر، لرؤية "سمروف" خلال عيون القرون القادمة، كان فاتناً لدرجة أن أى تفكير فى خيبة الأمل لا يستطيع إخافتى.

فقط شيء واحد أخافنى وهو التدقيق طويلاً فى الأمور التافهة، لأنه من الصعب تخيل أنه فى أول خطاب أقرأه، سيبدأ "رومان بوجدانوفيتش" هكذا - مباشرة - (مثل الصوت، فى أعلى درجة، الذى ينفجر فى أذنيك عندما تفتح الراديو للحظة) بتقرير بليغ عن "سمروف".

واستدعيت شارعاً مظلماً فى ليلة عاصفة من شهر مارس كانت السحابات تتدحرج عبر السماء، متخذة هيئة أشكال تشبه قطع الفن الزخرفى وتبدو مثل مهرجين منتفخين يتمايلون فى حفلة تنكرية، وبينما تندفع للأمام بفعل الرياح متعلقة بقبعتى السوداء المستديرة، شعرت بها كما لو كانت ستنفجر مثل قنبلة إذا تركت حافتها.

وقفت بالقرب من المنزل حيث عاش "رومان بوجدانوفيتش" وكان الشاهد الوحيد على مراقبتى هذه مصدر ضوء فى الشارع يهتز الضوء المنبعث منه بسبب الريح، وقطعة ورق من النوع المستخدم فى لف الأشياء تندفع سريعاً بامتداد الرصيف، والآن بمرح غريب تحاول أن تلف نفسها حول ساقى، دون أدنى تأثير لمحاولتى العنيفة أن أدفعها بعيداً. ولم يسبق لى - قط - أن لاقيت مثل هذه الريح أو رأيت مثل هذه سماء فى حالة اضطراب وتخبط. وجعلنى هذا أشعر بالغضب، فلقد جئت لأتجسس على أحد الطقوس - كان "رومان بوجدانوفيتش" ، فى منتصف الليل بين الجمعة والسبت، يضع خطاباً فى صندوق الخطابات - وكان من الضرورى أن أرى بعينى قبل أن أبدأ تطوير الخطة غير الواضحة التى تخيلتها . وأملت أننى بمجرد أن أرى صراع "رومان بوجدانوفيتش" مع الريح للسيطرة على صندوق الخطابات، ستصبح خطتى المتخيلة ممكنة التنفيذ وأكثر تحديداً (كنت أفكر فى تجهيز كيس لأدخله بطريقة ما داخل صندوق الخطابات،

تحفظه مفتوحاً وفى وضع يجعل أى خطاب "يُلقى داخل الصندوق يسقط فيه.)

لكن هذه الريح - الآن تطن أسفل قبعتى، وتنفخ رجليّ بنطالى، وتضغط على ساقىَّ حتى يبدو كما لو كانا عظماً - كانت حجر عثرة فى طريقى يمنعنى عن التركيز فى هذا الأمر.

.. قريباً سينتصف الليل ليمُر هذا الوقت العصيب، فأنا أعرف أن "رومان بوجدانوفيتش" رجل دقيق.

نظرت إلى المنزل، وحاولت أن أُخَمِّن خلف أى من النوافذ الأربعة المضاءة: هناك، يجلس فى هذه اللحظة رجل قد أنحنى على ورقة أمامه مبتدعاً صورة - قد تكون خالدة - عن "سمروف". عندئذ سأحيد نظرتى المحملقة إلى المكعب المظلم المثبت إلى سياج من الحديد، سأنظر إلى صندوق البريد المظلم حيث سيغوص خطاب مكتوب بلا ترو كما لو كان يغوص فى الأبدية.

وقفت بعيداً عن ضوء الشارع، حيث منحتنى الظلال نوعاً من الحماية الخجلة. فجأة - ظهر ضوء أصفر على زجاج الباب الأمامى، وفى غمرة إثارتى فقدت سيطرتى على حواف قبعتى . وفى اللحظة التالية كنت أدور فوق بقعة واحدة، بيدى مرفوعتين كما لو أن القبعة التى خطِفت منى حالاً ولازالت تدور حول رأسى. وسقطت القبعة السوداء المستديرة ، محدثة صوتاً مكتوماً، وتدحرجت بعيداً على الممشى الجانبى. انطلقت وراءها ،

محاولاً الإسراع لإيقافها، وكدت أن اصطدم بـ "رومان بواجدانوفيتش" الذى التقط قبعتى بيد واحدة، بينما بالأخرى يمسك مظروفاً مختوماً يبدو أبيض اللون وبشع المظهر. واعتقدت أن ظهوري إلى جواره فى هذه الساعة المتأخرة سوف يربكه.

للحظة احتوتنا عاصفة فى عنفوانها، أطلقت صرخة محاولاً أن يعلو صوتى على ضجيج الليل المهووس، وعندئذ التقطت بإصبعين الخطاب من يد " رومان بوجدانوفيتش " ، صرخت " " صندوق البريد في طريقي " .. كان متاحاً لى أن ألمح تعبيراً يوحى بالانزعاج والشك على وجهه، لكننى سرعان ما اندفعت قاطعاً العشرين ياردة إلى صندوق البريد وتظاهرت بأننى أدفع شيئاً ما بداخله ، وبدلاً عن ذلك دسست الخطاب داخل الجيب المقابل لصدرى. وهنا أدرك وجودي . ولاحظت أنه يرتدى (شبشب) المنزل. وقال لى باستياء "أية عادات تلك التى لديك، ربما لا أريد إرساله. ها هى قبعتك، خذها... أرأيت أبداً مثل هذه الريح؟

قلت لاهثاً: "أنا فى عجلة من أمرى" فالليلة بأحداثها المتلاحقة "قطعت نفسى" - إلى اللقاء، إلى اللقاء!!!

وامتط ظلى، أثناء اندفاعه فى أضواء الشارع، وتجاوزنى، لكنه فقد بعد ذلك فى الظلمة.

وبمجرد أن غادرت الشارع، توقفت الريح، وكان كل شيء ساكناً بشكل مروع، ووسط هذا السكون كانت هناك عربة تزمجر بالقرب من منحنى. وثبت عليها حتى دون أن أتبين أرقامها، ولفت انتباهى ما تميز به داخلها من بريق احتفالى، بعد ذلك كان من الضرورى أن أجد مصدراً للضوء فى الحال. وجدتُ مقعداً فى ركن هادئ، واندفعت مهتاجاً أمزق المظروف. عندئذ جاء شخص ما إلىّ، وكبداية وضعت قبعتى على الخطاب. لكنه لم يكن سوى محصل التذاكر. تظاهرت بالتثاؤب وبهدوء دفعت له ثمن التذكرة ، لكننى أبقيت الخطاب مخبأ طوال الوقت لأكون بمأمن عن أية شهادة ممكنة فى قاعة المحكمة، فليس هناك شيء أكثر قدرة على الإدانة من هؤلاء الشهود غير الواضحين مثل المحصلين، سائقي التاكسي، والبوابين. وبمجرد أن مضى فتحت الخطاب. بلغ طوله عشر صفحات، ومكتوب دفعة واحدة ودون تصويب واحد. لم تكن البداية شيقة تماماً، تجاوزت عدة صفحات وفجأة، مثل ملاقاة وجه مألوف فى زحام شديد، بدا لى اسم "سمروف" .. ياله من حظ مدهش!!

أقترح عزيزى "فيودور روبرتوفيتش" أن أعود مؤقتاً إلى ذكر هذا الوضع. أخشى أن ذلك قد يزعجك، لكن حسب كلمات الشاعر الألمانى المدهش ، أشير إلى العظيم جوته ، وتلى ذلك جملة ألمانية" - ولهذا أسمح لى أن أتأمل حالة "سمروف" مجدداً وأن أعرض عليك دراسة

سيكولوجية صغيرة.

توقفت وتابعت إعلاناً عن "شوكولاته الحليب" بنكهة زهور الليلك. كانت هذه هي فرصتي الأخيرة لأتخلى عن الرغبة في النفاذ إلى سر خلود "سمروف"

ما الذي يهمني إذا كان هذا الخطاب سيسافر - حقيقة - عبر جبل بعيد ليعبر إلى القرن القادم، الذي يبدو تكوينه - من رقم اثنين وثلاثة أصفار - خيالياً جداً لدرجة العبث؟

ما الذي يهمني في نوع البورتريه الذي سيعرضه هذا المؤلف الميت منذ فترة طويلة، مستخدماً نفس التعبير الردىء "يعرض" الذي سبق واستخدمه، على أجيال مجهولة قادمة؟

وعلى أية حال ليس هذا بالوقت المناسب للتخلي عن مغامرتي، لإيقاف المطاردة والمراقبة والمحاولة المجنونة لمحاصرة "سمروف" ، أليس كذلك؟

لكن للأسف ، كان ذلك بمثابة تداع لغوي ذهني ، فأنا على يقين تام بأنه لا توجد قوة على سطح الأرض تستطيع منعي عن قراءة هذا الخطاب . (لدي انطباع ، أيها الصديق العزيز، بأنني قد كتبت لك توا عن حقيقة أن "سمروف" ينتمي إلى نوع من الناس مثير للفضول، هؤلاء أدعوهم بـ "المنحرفين جنسيا". ومظهر "سمروف" بأكمله، وسهولة انقياده،انحطاطه، وإيماءاته المتكلفة ، وولعه بـ "ماء الكولونيا"، وعلى الأخص هذه النظرات المختلسة

التى يوجهها دائماً إلى خادمتك متواضعة المظهر، كل ما سبق يؤكد ما خمنته.

ومن الواضح أن مثل هؤلاء الأشخاص غير المحظوظين جنسياً، عندما يتوقون حسياً إلى حالة الكائن الوسيم الناضج مثل رجل، يختارون امرأة يعرفونها جيداً أو قليلاً أو لا يعرفونها على الإطلاق.

وهكذا اختار "سمروف"- رغم فساده- "فارفارا" نموذجاً خاصاً به. وهذه المعشوقة الجميلة رغم غبائها، مخطوبة لـ "م. م. موخين" واحد من أصغر الكولونيلات فى الجيش الأبيض، وهكذا تأكد "سمروف" تمام التأكد من أنه لن يجبر على أداء أى دور، هو غير قادر أو راغب فيه، مع أية سيدة حتى ولو كانت "كليوباترا" ذاتها.

بالإضافة إلى ذلك فإن "المنحرف جنسياً" - وأقر بأننى أجد المصطلح مناسباً بشكل مذهل - كثيراً ما يغذى بداخله ميلاً لكسر القانون، وتسهل مثل هذه المخالفة أكثر بالنسبة له بواسطة الحقيقة التى تقول بأن مخالفة قانون الطبيعة موجودة بالفعل. وهنا كذلك لا يعد صديقنا "سمروف" استثناء.

تصور، فى يوم أسر لى (فيليب أنوكينتيفتش خروشوف) بأن "سمروف" كان لصاً، لص بكل ما تعنيه الكلمة من قبح، وصرح لى محاورى بأنه قد أعطاه "علبة نشوق" عليها علامات غامضة، وترجع العلبة إلى عصر عظيم مضى، وطلب منه أن يعرضها على خبير.

أخـذ "سـمروف" هـذه التحفـة الجميلـة ، وأخـبر "خروشوف" وعلى وجهه كل علامات الرعب - أنه فقدها. أنصت إلى إدعاء "خروشوف" ، وبينت لـه أنـه فـى بعض الأحيان يكون الدافع للسرقة مجرد ظاهرة مرضية لها اسم علمى "كليبتومانيا - هوس السرقة".

و"خروشـوف" ، مثلـه مثل العديد من الأشـخاص اللطفاء رغم محدودية تفكيرهم، بدأ بسذاجة ينفـى أننـا فـى الحالة الراهنة نتعـامل مـع مريـض بهـوس السـرقة وليس مجرماً.

ولم أدخل معه فى نقاشات كانت بلاشك قادرة على إقناعه. فبالنسبة لى كل شيء واضح كضوء النهـار، فبدلا عن وسـم "سـمروف" بلقب "لـص" المهين، أشعر بأسـى صادق تجاهه، رغم المفارقة التى قد تبدو فى هذا الشعور.

ولقد تحول الطقس للأسوأ، وربما يكون للأفضل، لولا هذه الثلـوج نصـف الذائبـة والريـح التـى تبشـر بمقدم الربيع، والتى، حتى فى قلب رجل عجـوز، تثـير رغبـات غامضة ، قول مأثور يخطـر علـى العقل، وهـو بـلا شك لن ... ...)

انزلقت إلى نهاية الخطاب - لم يكن هنـاك المزيد يمثل أهمية بالنسبة لى. نظفـت حلقـى، وبأصـابع غير مرتعشـة طويت الأوراق بنظام.

سـمعت صوتـاً فظـاً يوجـه كلامـاً إلـىَّ : "المحطـة الأخيرة يا سيدى".

ثانية - المساء - المطر ، وضواحى المدينة...

* * *

كان "سمروف" يجلس على إحدى درجات سلم مرتدياً معطفاً ملفتاً من الفراء له ياقة نسائية. فجأة هبط "خروشوف"، وكان يرتدى معطفاً من الفراء، وجلس إلى جواره . كان صعباً على "سمروف" أن يبدأ بالكلام، لكنه أدرك أن الوقت ضيق، ويجب عليه أن يخوض التجربة . أخرج يده ذات الشكل الأسطوانى من الكم الفرو الواسع، وكانت الخواتم تبرق فى أصابعه، جميعها من الياقوت، مر بيده على شعره، وقال: "هناك شيء أريد أن أذكرك به يا "فيليب أنوكينتفيتش" - من فضلك أنصت لى جيداً". أومأ "خروشوف"، وتمخط بصوت مرتفع (كان مصاباً بالبرد من جلوسه الدائم على درجات السلم) أومأ ثانية، وارتعش أنفه المتورم.

استمر "سمروف" فى الكلام: سأتحدث عن حادثة صغيرة وقعت حديثاً. من فضلك أنصت جيداً.

رد "خروشوف": "تحت أمرك".

قال "سمروف": من الصعب على أن أبدأ. فربما أخون نفسى بتلفظ كلمة عن غير قصد. أنصت جيداً، أنصت إلى من فضلك يجب أن تفهم أننى أعود إلى هذه الحادثة دون غرض خاص كامن فى خلفية عقلى فأنا لم يدخل دماغى أنك ظننت أننى لص.

أنت نفسك يجب أن توافقنى على أننى لا أستطيع

أن أطلع على تفكيرك هذا، فرغم كل شيء أنا لا أقرأ خطابات الآخرين، وأريدك أن تفهم أن الموضوع حدث بمحض الصدفة... هل تنصت؟

قال "خروشوف": إستمر ، وهو يضم أطراف معطفه الفرو. أكمل "سمروف": حسناً، لنستعيد ذلك "فيليب أنوكينتيفتش" لنتذكر صندوق السعوط الفضى ذا النقوش. طلبت منى أن أعرضه على "فينتشتوك"، أنصت باهتمام، وعندما غادرتك كنت أحمله فى يدى.

لا - لا - من فضلك لا تبدأ بتلاوة حروف الهجاء.

باستطاعتى الاتصال بك جيداً دون حاجة لحروف الهجاء وأقسم، أقسم بـ "فانيا" ، أقسم بكل امرأة أحببتها، أقسم أن كل كلمة قالها الشخص الذى لا أستطيع نطق اسمه - وإلا ستظن أننى طالما أقرأ رسائل الناس، فأنا قادر على سرقتهم كذلك - أقسم أن كل كلمة قالها كاذبة، ففى الواقع لقد فقدت هذا الصندوق. عدت إلى المنزل، ولم يكن بحوزتى عندئذ، ولم يكن ذلك نتيجة لخطئى. فقط كنت مغيب العقل، لأننى أحبها كثيراً . لكن "خروشوف" لم يصدق "سمروف"، وهز رأسه. وبلا طائل أقسم "سمروف" وهو ويهز يديه البيضاوين اللامعتين. ولا أمل - فالكلمات اللازمة لإقناع "خروشوف" لا وجود لها (هنا استنزف حلمى منبعه الهزيل من المنطق: فمن الآن السلالم التى دارت عليها هذه المناقشة ستبدو موجودة بمفردها فى ريف مفتوح، وأسفلها تمتد الحدائق فى مستطيلات

مصفوفة إلى جوار بعضها، صورة ضبابية لأشجار أزهارها غير واضحة، وتنتشر هذه الحدائق المستطيلة بامتداد الأرض المنبسطة حتى ليهيأ للمرء أنه يستطيع تمييز مساقط المياه الصغيرة والمروج الجبلية الخضراء.)

قال "خروشوف" بصوت حاد متكلف: "نعم، نعم كان هناك شيء ما داخل الصندوق، ولهذا لا يمكن استبداله.

بداخله كانت توجد "فانيا"، نعم - نعم يحدث هذا أحياناً للبنات... ظاهرة شديدة الندرة ، لكنها تحدث.

استيقظت فى الصباح الباكر. زجاج النوافذ يرتج لمرور شاحنة ، ومنذ فترة طويلة لم يعد هذا الزجاج يغطى بطبقة رقيقة بنفسجية من الثلج ، لقرب حلول الربيع. توقفت عن التفكير فى كل ما حدث لى مؤخراً، وكم عدد الأشخاص الذين قابلتهم، وكم كانت عملية البحث من منزل إلى منزل - عملية استعبادية وبلا أمل يرجى منها، ومثلها سعيي للوصول إلى "سمروف" الواقعى.

لا فائدة من التخفى ، فكل هؤلاء الأشخاص الذين قابلتهم لم يكونوا كائنات حية لكنهم كانوا مرايا محتملة لـ "سمروف" . وضمنهم ثمة واحدة هى الأهم بالنسبة لى ، أكثر المرايا لمعاناً ورغم ذلك لا تستطيع أن تقدم لي انعكاساً لوجود "سمروف".

أمامى يتحرك المضيفون والضيوف المقيمون فى (٥ شارع بيكوك)، يتحركون من الضوء إلى الظل، بلا

مجهود، وببراعة، كما لو كانوا مخلوقين فقط لتسليتي.

مرة أخرى يمد "موخين" يده، وهو بارز قليلاً عن الأريكة، عبر المنضدة وباتجاه مطفأة السجائر، لكنني لم أر وجهه أو تلك اليد وهي تحمل السيجارة، فقط رأيت يده الأخرى والتي (بلا إرادة ..!) مست للحظة ركبة "فانيا".

ومرة أخرى "رومان بوجدانوفيتش" بلحيته وبالتفاحتين على وجنتيه، يحنى وجهه المحتقن لينفخ فى الشاى، وثانية تجلس "ماريانا" وهى تشبك ساقيها، رفيعتان عليهما جوربان لهما لون مشمشي.

وكمزحة، كانت الليلة ليلة عيد الميلاد، وأظن أن "خروشوف" كان يضم طرفى معطف زوجته المصنوع من الفراء، مقلداً حركات "المانيكان" أمام المرأة، ويتجول فى الحجرة مثيراً ضحك الجميع، وتدريجياً تزايدت شدة الضحك لأن "خروشوف" دائماً ما يتزيد فى ممازحاته . بيديها الجميلتين الصغيرتين ذات الأظافر المصقولة والتى تبدو رطبة، التقطت "إيفجنيا" مضرب تنس الطاولة والكرة البلاستيكية الصغيرة ، وبدأت تضرب الكرة جيئة وذهاباً عبر الشبكة كمن يؤدى واجباً. وثانية، فى ظلمة جزئية يجلس "فينشتوك" – شارداً – إلى منضدة عمودية مزودة بقلم، فبدا كما لو كان جالساً إلى عجلة قيادة، وثانية تمر الخادمة "هيلدا" أو "جرتشن" حلمياً من باب إلى آخر ، وفجأة تبدأ الهمس وتخلع ملابسها. وحينما أرغب أستطيع أن أسرع أو أبطئ من حركات هؤلاء الناس لحد سخيف ،

أو أوزعهم على مجموعات مختلفة، أو أرتبهم في تصنيفات متنوعة، وأسقط الآن الإضاءة عليهم من أسفل، ثم من الجانب... بالنسبة لي أصبح وجودهم مجرد وميض على شاشة.

* * *

لكن انتظر، ثمة محاولة أخيرة توفرها الحياة لتثبت لي أنها كانت حقيقة.. مستبدة وحساسة ، تثير مشاعر المتعة والعذاب ، تمتلك احتمالات عمياء للسعادة مع الدموع ، مع الرياح الدافئة.

في ذلك اليوم صعدت إلى شقتهم مساءً، ووجدت الباب غير مغلق ،الحجرات خالية ، والنوافذ مفتوحة. وفي مكان ما كانت مكنسة هوائية تصدر طنيناً شديداً.

فجأة ، من خلال الباب الزجاجي بين حجرة الاستقبال والشرفة، رأيت رأس "فانيا" المنحني.. كانت تجلس في الشرفة وبيدها كتاب، ومما أدهشني أنها المرة الأولى التي أجدها في البيت بمفردها.

ومنذ أن حاولت قهر حبي لها قائلاً لنفسي أن "فانيا"، مثل كل الآخرين، موجودة فقط في خيالي، وهي مجرد مرآة ، بدأت أعتاد إدعاء نبرة مرحة مميزة عندما اتحدث إليها ، والآن أحييها، قلت بلا أدنى ارتباك أنها "مثل أميرة تستقبل الربيع من برجها العالي".

كانت الشرفة صغيرة تماماً، وبها إصيصات زهور فارغة، وفي أحد الأركان إناء فخاري مكسور،

قارنت عقلياً بينه وبين قلبى، حيث أنه يحدث أن أسلوب المرء فى الحديث إلى شخص ما يؤثر فى الطريقة التى يفكر بها فى وجود هذا الشخص . كان النهار دافئاً، رغم أنه لم يكن مشمساً كفاية ، مع قليل من الشوائب والرطوبة التى خففت من ضوء الشمس، ونسيم معتدل غير مستقر يحمل الانتعاش من زيارة لبعض الحدائق العامة حيث العشب الصغير يقف قوياً وأخضر أمام سواد الطفل الرملى.

أخذت شهيقاً من هذا الهواء، وأدركت تلقائياً أن زفاف "فانيا" كان منذ أسبوع مضى.

أعاد علىّ هذا التفكير كل مشاعر الشفقة والألم، ونسيت ثانية أمر "سمروف" ونسيت أننى يجب أن أتحدث بطريقة لامبالية، استدرت وبدأت أنظر إلى الشارع فى الأسفل، كم كنا مرتفعين ، كم كنا لوحدنا تماماً.

قالت" فانيا": "سيحضر بعد برهة قصيرة" ، "لقد تركوك تنتظر لساعات فى هذه المكاتب".

"سهرك الرومانسى ..." بدأت مستحثاً نفسى لأبقى على هذا الارتفاع الذى يصون الحياة، ومحاولاً أن أقنع نفسى أن النسيم الربيعى كان شائعاً لحد ما، وأننى أمتعت نفسى كثيراً.

لم أكن قد حظيت بنظرة معقولة إلى "فانيا" فدائماً كنت أحتاج إلى قليل من الوقت لأتعود على وجودها قبل النظر إليها ، والآن رأيت أنها كانت ترتدى تنورة حريرية

سوداء و"بلوفر" أبيض ذا طوق منخفض على شكل حرف (V) وأن تسريحة شعرها كانت ناعمة منسابة.كانت تنظر من خلال نظارتها إلى صفحات كتاب مفتوح ، رواية دموية كتبتها سيدة روسية فى "بلجراد" أو "هاربين" . كم كنا أعلى من الشارع ، قريبين من السماء المنبسطة والمجعدة. فى الداخل توقفت المكنسة الهوائية عن إصدار ضجيجها . قالت: "توفى عمى باشا" ورفعت رأسها- "نعم وصلتنا برقية هذا الصباح".

ما الذى يهمنى إذا كان وجود هذا العجوز، المرح ذو النصف عقل، قد وصل إلى نهاية ما؟

لكن مجرد التفكير أن بموته قد ماتت الصورة السعيدة قصيرة الأجل لـ "سمروف"، صورة "سمروف" العريس، شعرت أننى لا أستطيع بعد الآن أن أكبح مشاعر الإثارة التى اشتعلت بداخلى منذ فترة طويلة. لا أعرف كيف بدأت - لابد كانت هناك بعض المحرضات الابتدائية لكننى لا أذكر سوى أننى وجدت نفسى جالساً على الذراع الواسع لكرسى "البامبو" الذى تجلس عليه "فانيا" ، وقد تعلقت فى الحال بمعصم يدها - طويلاً حلمت بذلك التلامس الممنوع - إحمر وجهها بشدة، وفجأة بدأت عيناها تلمع لترقرق الدموع فيها - رأيت بوضوح ، جفنها السفلى الداكن وقد امتلأ بسائل متلألئ ، وفى نفس الوقت احتفظت بابتسامتها - كما لو كانت بكرم بالغ قد أرادت أن تسبغ علىّ كل التعبيرات المتنوعة لجمالها "كان رجلاً عجوزاً

لطيفاً ومسلياً" قالت ذلك لتفسر الابتسامة المتألقة على شفتيها، لكنني قاطعتها، تمتمت : "لا أستطيع الاستمرار هكذا، لا أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك". والآن تحاول انتزاع معصمها من قبضتي، والذى سرعان ما أصبح متوتراً مشدوداً ، والآن تقلب صفحة طيعة فى الكتاب الموضوع على قدميها، وقالت : "يجب أن أخبرك ... ولن يشكل ذلك أى فرق - سوف أرحل ولن أراك ثانية بعد الآن . يجب أن أخبرك فرغم كل شيء أنت لا تعرفني.. لكنني فى الحقيقة ارتدى قناعاً، دائماً اختفى خلف قناع..".

قالت "فانيا" : "تعال - تعال، فى الحقيقة أنا أعرفك جيداً، فأنا أرى كل شيء، وأعرف كل شيء. أنت شخص طيب وذكى. انتظر لحظة، سأخذ منديلى . أنت تجلس عليه. لا لقد سقط شكراً لك. من فضلك دع يدي لا يجب أن تلمسنى بهذه الطريقة. من فضلك لا تفعل، ومن جديد كانت تبتسم ، رافعة حاجبيها بلطف لا يخلو من كوميديا، كما لو كانت تدعونى لأبتسم أنا الأخر، لكنني كنت قد فقدت كامل سيطرتى على نفسى، فلقد شعرت أن بعضاً من أمالى المستحيلة كانت ترفرف بالقرب منى، وبدأت الحديث والإيماء بجموح بالغ لدرجة أن ذراع المقعد تحتى بدأ يصر، وكانت هناك لحظات كان مفرق شعر "فانيا" أسفل شفتي تماماً، مما جعلها تبعد رأسها بحرص.

قلت بسرعة "أكثر من الحياة نفسها"... " أكثر من الحياة نفسها ،ومنذ فترة طويلة، من اللحظة الأولى. وأنت

أول شخص على الإطلاق يقول لى أننى طيب..".

قالت "فانيا" بنبرة ملتمسة: "من فضلك لا تفعل ذلك. أنت فقط تؤلم نفسك وتؤلمنى، ما رأيك - لم لا تدعنى أحكى لك كيف صرح لى "رومان بوجدانوفيتش" بحبه لى.. كان مرحاً..".

صرخت : كيف تجرؤين؟ من يهتم بهذا المهرج؟ انا أعرف، أعرف أنك ستكونين سعيدة معى. وإذا كان هناك شيء يتعلق بى ولا يروق لك، سأغيره كما يحلو لك، سأغيره.

قالت "فانيا" يعجبنى كل شىء فيك، حتى خيالك الشعرى . حتى ميلك للمبالغة فى بعض الأحيان . لكن فوق كل ذلك أحب طيبتك، دائماً أنت غريب وجذاب. لكن من فضلك توقف عن الإمساك بيدى هكذا، وإلا ببساطة سأنهض وأرحل.

سألت: "إذن ما زال هناك أمل رغم كل شيء؟".

قالت "فانيا": "لا أمل على الإطلاق، وأنت تعرف ذلك تماماً. وبالإضافة إلى ذلك، سوف يحضر "رومان" فى أية دقيقة الآن".

صرخت: لا يمكن أن تحبيه أنت تخدعين نفسك لا يستحقك. أستطيع أن أحكى لك بعض الأشياء المزعجة عنه.

قالت"فانيا" "هذا يكفى" وتظاهرت كما لو كانت

ستنهض.

عندئذ، رغبت أن أشل حركتها، وبلا إرادة أو شعور بالراحة احتضنتها، وتحت تأثير الملمس الدافئ الصوفى الشفاف للبلوفر الذى ترتديه، بدأت بهجة غير واضحة وموجعة تفور بداخلى، كنت جاهزاً لأى شىء حتى لأكثر الأفعال وحشية وإثارة للتقزز، لكن من اللازم أن أقبلها ولو مرة .

تمتمت : لماذا تقاومين؟ ماذا سيكلفك؟ بالنسبة لك هو مجرد فعل بسيط يدل على المحبة، وبالنسبة لى هو كل شىء.

اعتقدت أننى سأحصل على هزة الجماع ونشوتها الحلمية لو استطعت احتضانها لثوان معدودة أخرى، لكنها نجحت فى تحرير نفسها ووقفت. مشت إلى سياج الشرفة وتنحنحت وضيقت عينيها وهى تنتظر ناحيتى، وفى مكان ما من السماء انطلقت ذبذبة طويلة تشبه صوت القيثارة . وهذه هى الملاحظة الأخيرة. ليس لدى ما أخسره. فأفشيت دون تفكير كل شىء. وصرخت بأن "موخين" لم ولن يـ 'يع أن يحبها ، وفى تدفق مبتذل صورت حتمية ـعادتنا إذا تزوجتنى، وفى النهاية شعرت أننى على وشك الانفجار فى البكاء، وألقيت كتابها الذى بطريقة ما كان بين يدى، واستدرت مبتعداً، لأترك "فانيا" للأبد فى شرفتها مع الريح ومع السماء الربيعية المعكرة، ومع الصوت الجهورى الغامض الصادر عن طائرة غير مرئية.

في حجرة الاستقبال، غير بعيد عن الباب، جلس "موخين" يدخن. تبعني بعينيه وقال في هدوء "لم أظن أبدا أنك وغد لهذا الحد.".

* * *

هبطت إلى حجرتي ، أخذت قبعتي وأسرعت خارجاً إلى الشارع. وبمجرد دخولي أول محل زهور رأيته ، بدأت أدق بكعبي وأصفر، ولم يكن هناك غيري. فلقد استثارت روائح الزهور الزكية، في كل مكان حولي، حواسي المتلهفة. كان الشارع ممتداً في المرآة الجانبية والتي تحازي نافذة العرض، لكن ذلك الامتداد لم يكن سوى امتداد متوهم: فالسيارة التي تمر من اليسار إلى اليمين تتلاشى فجأة رغم هدوء الشارع المارة به.. ثم سيارة أخرى تتقدم من الاتجاه المضاد لتتلاشى هي الأخرى، وإحداهما لم تكن سوى انعكاس.

أخيرا ظهرت البائعة. كنت قد اخترت بوكيه كبيراً من زهور "ليلك" الوادي"، تلك التي تتدلى من كئوسها المرنة جواهر مائلة للزرقة، وكان الإصبع الرابع في يد البائعة ملفوفاً بضمادات، يبدو أنها قد وخزت نفسها. ذهبت لتقف خلف الطاولة، ولفترة طويلة عملت بجدية في صنع لفافة منمقة من ورق ردئ وشكلت الفروع المضمومة معاً بإحكام كتلة سميكة تشبه "السجق" ، وأبدا لم أتخيل أن زهور" ليلك الوادي" قد تكون ثقيلة لهذا الحد.

وعندما دفعت الباب، لاحظت الانعكاس في المرآة

الجانبية: هناك شاب يرتدى قبعة سوداء مستديرة، ويحمل بوكيه ، كان يسرع باتجاهى،ثم اندمجت والانعكاس فى شخص واحد. وخرجت إلى الشارع.

سرت بسرعة شديدة ، بخطوات متكلفة ، ومحاطاً بسحابة صغيرة من عطر الزهور. حاولت ألا أفكر فى أى شيء، وأن أؤمن بقوة الشفاء المذهلة للمكان الخاص الذى اتجه إليه مسرعاً. كان الذهاب إليه هو السبيل الوحيد لتجنب كارثة : فالحياة - حارة وثقيلة وممتلئة بالعذاب - كانت فى طريقها لتحل على ثانية لتنفى بوقاحة أننى كنت شبحاً.

فكما أن التحول المفاجئ للحياة الواقعية إلى حلم أمر مخيف، سيتزايد هذا الرعب عندما يبدأ - فجأة - ما ظنه المرء حلماً - سائلاً وغير مسئول - يبدأ فى التجمد ليصبح واقعاً.. يجب أن أوقف هذا، وأعرف كيف أقوم بذلك.

وبمجرد وصولى إلى هدفى، بدأت أضغط على الجرس دون أن أتوقف لألتقط أنفاسى ، رننت كما لو كنت أ[illegible] ظمأ لا يحتمل، رننته طويلاً وبجشع ، وهذا تعبير [illegible]عوى.

جاء صوتها متذمراً: "حسناً، حسناً، حسناً، وفتحت الباب. اندفعت عبر العتبة ، ودفعت "بوكيه" الورد إلى يديها. قالت : "أوه - كم هو جميل" وبنظرة ذاهلة من عينيها العجوزتين باهتتى الزرقة، ثبتتنى فى مكانى.

صحت: "لا تشكرينى" وبعنف رفعت يدى وأكملت "لكن قدمى لى معروفاً، دعينى ألقى نظرة على حجرتى القديمة أتوسل إليك.

قالت السيدة العجوز: "الحجرة؟"، أسفة لسوء الحظ ليست خالية، لكن كم هو جميل منك، كم هو لطيف.

قلت وبى رعشة نفاد صبر: "لم تفهميننى كلية. فقط أريد أن ألقى نظرة. هذا كل شيء، ولا أكثر. من أجل الورود التى جلبتها لك. من فضلك، أنا متأكد أن ساكن الغرفة قد غادر إلى عمله..".

برشاقة مررت منها، وجريت الممر بطوله، وجاءت خلفى، وهى تردد: "أوه - يا عزيزى - الحجرة مؤجرة"، "داجالجن - لا ينوى المغادرة ، لا أستطيع أن أدعك تحصل عليها".

جذبت الباب بعنف فانفتح . كان الأثاث موزعاً بشكل مختلف إلى حد ما، وكان هناك أبريق جديد على الحوض، وخلفه على الجدار وجدت الثقب، وقد تمت تغطيته "بالجص" - بعناية . نعم - فى اللحظة التى وجدته شعرت بالطمأنينة. وبيدى تضغط على موقع القلب من صدرى ، حملقت فى العلامة السرية لرصاصتى: كانت دليلى على أننى قد مت بالفعل، وسرعان ما استعاد العالم تفاهته المطمئنة - ثانية شعرت أننى قوى، ولا شيء يستطيع أن يؤذينى. وبشطحة واحدة من هلوستى كنت قادراً على استدعاء أكثر الأطياف إثارة للرعب من

وجودى السابق.

وبانحناءة احترام تجاه السيدة العجوز غادرت الحجرة حيث حدث ذات مرة، أن انقسم رجل إلى اثنين ، عندما أطلق الرصاصة القاتلة. وأثناء عبورى فى الصالة الأمامية لاحظت أن ورودى ملقاة على المنضدة، فتظاهرت بحالة غياب الوعى، والتقطها، قائلاً لنفسى أن هذه السيدة العجوز الغبية لا تستحق مثل هذه الهدية الغالية. فى الحقيقة ، أستطيع إرسالها إلى "فانيا" ومعها، تعليق حزين لا يخلو من الفكاهة.

مازالت الورود نضرة وندية، لكن أوراقها الرقيقة بدأت تلين هنا وهناك. وأثناء عصر أصابعى للسيقان الخضر ذات الملمس البارد، استدعيت الارتجاج والسقوط الذى صاحب ذهابى إلى العدم. مشيت مرتاحاً بامتداد حافة الممشى الجانبى، نصف مغلق العينين، وتخيلت أننى كنت أتحرك على شفا حفرة ، عندما حيانى فجأة صوت جاء من ورائى.

"صباح الخير - سمروف" كان الصوت عالياً لكنه مهتز النبرة. استدرت لسماع اسمى، ولا إرادياً انزلقت إحدى قدمى.. كان "كاشمارين" زوج "ماتيلدا" ، وكان يجذب بسرعة مذهلة قفازين صنفراوين ليقدم لى يده.

لم تكن معه عصاه المشهورة، وكان قد تغير نوعاً ما، ربما يكون وزنه قد ازداد. كان على وجهه تعبير يشى بالارتباك، وكانت أسنانه الكبيرة غير اللامعة، تبرق فى

تزامن مع قفازه ذى اللون الساطع، وكانت تبتسم في مواجهتي.

أخيراً ، اندفعت تجاهى يده بأصابعها ممدودة على أخرها، شعرت بوهن غريب ، وكنت متأثراً بعمق، حتى عينى بدأتا تؤلمانى.

قال: "سمروف".. لا تستطيع أن تتخيل كم أنا سعيد أننى تمكنت من الالتقاء بك. كنت أبحث عنك بلهفة شديدة، لكن لم يكن هناك من يعرف عنوانك.

وهنا تبدى لى أننى أنصت بأدب شديد إلى هذا الشبح من حياتى السابقة، وقررت أن أذله ، فقلت : "ليس لدى ما أناقشه معك.. يجب أن تكون ممتناً لأنى لم أقاضيك أمام المحكمة".

قال مباشرة : "لتعرف "سمروف" أننى أحاول الاعتذار عن حالتى المزاجية المزرية. فبعد نقاشنا المحتدم، لنقل هذا، لم أستطع أن أعيش فى سلام مع نفسى، شعرت بأن ما حدث كان فظيعاً دعنى أعترف لك بشيء ما ، كرجل محترم لآخر. تعرف، لقد أدركت بعد ذلك أنك لم تكن الأول أو الأخير، ولهذا طلقتها، نعم طلقتها.

قلت: "لا جدال، ليس هناك ما يمكن مناقشته بينى وبينك، وأخذت شمة من بوكيه الورد الممتلئ والبارد.

قال "كاشمارين" متعجباً: أوه - لا تكن هكذا حقوداً..!"

.. تعال ، إضربني ، وجه لي لكمة قوية، وعندئذ سنسوى كل شيء. ألا تريد ذلك؟

.. ها أنت تبتسم - هذه علامة جيدة.

لا - لا تختبئ خلف الورد، أستطيع أن أراك تبتسم. حسناً - هكذا نستطيع الحديث مثل أصدقاء..

دعني أسألك. كم من النقود تكسب؟.

تجهمت طويلاً، ثم أجبته.

وطوال ذلك كان على أن أكبح رغبة في قول شيء ما لطيف، شيء ما يوضح كم كنت متأثراً.

قال "كاشمارين": حسناً ، لقد جلبت لك وظيفة تحصل منها على ثلاثة أضعاف ما تكسبه الآن.تعال وقابلني غداً صباحاً في فندق "مونوبول" . سأقدمك إلى شخص سيساعدك. الوظيفة فرصة، والرحلات إلى "الريفيرا" و"إيطاليا" لا يمكن إغفالها . الوظيفة لها علاقة بتجارة السيارات. ستمر عليّ - أليس كذلك؟

وكما يقولون . لقد أصاب عين الثور، فلقد سئمت "فينشوك" وكتبه منذ زمن طويل ، ثانية بدأت أشم الورود الباردة بين يدى، مخفياً فيها بهجتى وإمتنانى.

قلت: "سأفكر فى الأمر" وعطست.

افترقنا. سرت متمهلاً، وأنفى مدفون فى بوكيه الورد.

* * *

جاء "كشمارين" بصورة أخرى لـ "سمروف"، فهل

يمثل ذلك أى اختلاف؟ لأننى غير موجود يصبح الوجود ليس سوى آلاف المرايا التى تعكسنى . فمع كل علاقة أقيمها يزداد عدد الأشباح التى تشبهنى . فى مكان ما نتواجد، فى مكان ما تتكاثر. أنا فقط غير الموجود.

وعلى كل حال، سيحيا "سمروف" لفترة طويلة. فهذان الصبيان، إنسان عيونهما يخصنى، سيصبحان عجوزين، وستعيش صورة أو أخرى لى بداخلهما مثل طفيل.

بعد ذلك سيأتى اليوم الذى يموت فيه آخر شخص يتذكرنى. وفى المقابل سيتضاءل الجنين، صورتى أيضاً، ويموت داخل ذلك الشاهد الأخير للجريمة التى ارتكبتها بواسطة الحقيقة المجردة للعيش.

وربما يتصادف أن تحكى عنى حكاية طريفة ،

ينقل فيها البطل اسمى منه إلى ابنه أو حفيده ، وهكذا سيظهر اسمى وشبحى، هنا وهناك، بشكل مؤقت. وبعد ذلك ستأتى النهاية.

رغم ذلك أنا سعيد. نعم سعيد. أقسم أننى سعيد . فلقد أدركت أن السعادة الوحيدة فى هذا العالم هى أن تلاحظ ، تتجسس، تشاهد، تتفحص ذاتك والآخرين، أن تكون لا شىء، مجرد عين كبيرة، زجاجية قليلاً، محتقنة إلى حد ما ولا ترمش.

أقسم أن هذه هى السعادة.

ما الذى يهم فى أننى حقير قليلاً، مغفل قليلاً، وأنه

لا يوجد من يقدر كل الأشياء المميزة في .. خيالي، معرفتي الواسعة، موهبتي الأدبية.. أنا سعيد لأنني أستطيع أن أحملق في نفسي، ولأي شخص هذا أمر ممتع جداً، نعم ممتع بحق..! فالعالم، مهما حاول ، لا يستطيع إيذائي.. فأنا منيع. وما الذي يهمني إذا تزوجت شخصاً آخر؟

فبين ليلة وأخرى أحلم بملابسها وأشيائها على حبل ملابس لا ينتهي من النعيم، وفي ريح لا تتوقف عن الاستحواذ. ولن يعلم زوجها أبداً ماذا أفعل بخيوط الحرير والصوف التي تخص هذه الفاتنة الراقصة. وهذه أسمى إنجازات الحب.. أنا سعيد - نعم أنا سعيد!

ما المزيد الذي أستطيع أن أفعله لأثبت ذلك، كيف أعلن أنني سعيد؟

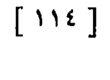
أوه - لأصرخ معلناً ذلك حتى تصدقوني جميعاً في النهاية، أنتم أيها القساة، يا ناس من ضباب ودخان.

فلاديمير نابوكوف (١٨٩٩ - ١٩٧٧)

روائى أمريكى من أصل روسى .
تركت وأسرته روسيا إلى أوروبا بعد قيام الثورة البلشفية.
تلقى تعليمه فى جامعة كمبريدج البريطانية.
عاش خلال عشرينات وثلاثينات القرن الماضى فى ألمانيا لكنه فرّ منها فى نهاية الثلاثينات عند اشتداد الحركة النازية.
استقر فى أمريكا بداية من الأربعينات حيث عمل مدرساً للأدب الروسى بجامعة شتانفورد.

له عدد كبير من المؤلفات فى مجالات الشعر والقصة والرواية، بالإضافة إلى كتب فى مجالات غير أدبية من أهمها ما يتناول أنواع الفراشات وصيدها حيث كانت هذه هى هوايته الأثيرة إلى جوار الكتابة.

من رواياته (ماشينكا)، (ضحكة فى الظلام) ، (لوليتا)، (الهبة)، (الدفاع).
مارس قبيل وفاته الكتابة باللغة الإنجليزية.



- صدرت الرواية باللغة الإنجليزية عـام ١٩٦٦ عـن دار نشـر (ويدنفيلد ونيكولسون) ، ثم عام ١٩٦٨ عن دار نشر (بانثر).
- ترجمعها إلى الإنجليزيـة (ديمـترى نـابوكوف) بالتعـاون مـع المؤلف.





فلاديمير نابوكوف

العين

رواية



